الإعلام

بمناقب الإسلام

تأليف

أبي الحسن محمد بن يوسف العامري

المتوفى سنة ٣٨١ هـ

ضبط وتحقيق

أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح   المستشار/ توفيق على وهبة

النـــاشر

دار الخلود للتراث

٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة – القاهرة

ت: ٠١٨١٦٠٧١٨٥ - ٢٥٩١٩٧٢٦

الكتـــــاب : **الإعلام بمناقب الإسلام**

المؤلـــــف : أبي الحسن محمد بن يوسف العامري

المقـــــاس : ١٧ X ٢٤

الطبعـــــة : الأولي

عدد الصفحات : ١٧٨

الناشـــــر : دار الخلود للتراث

رقم الايـــداع : ٢٠٠٨/١٠٨٢٧

بطاقة فهرسة

العامري ، محمد بن يوسف العامري النيسابوري أبو الحسن ، ٩٩- ٠٠

الإعلام بمناقب الإسلام/ تأليف: أبي الحسن محمد بن يوسف العامري ، ضبط وتحقيق : أحمد عبد الرحيم السايح ، توفيق على وهبه – القاهرة : دار الخلود للتراث ، ٢٠٠٨

ص ؟ سم .

تدمك ٢ ٣٥ ٦١٧٧ ٩٧٧

١- الإسلام والديانات الأخرى

٢- الديانات المقارنة.

أ. السايح، أحمد عبد الرحيم (محقق)، ب : وهبه ، توفيق علي (محقق مشارك)

ج: العنوان ٢١٤,٢

دار الخلود للتراث

٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة – القاهرة

☎ ٢٥٩١٩٧٢٦ – موبايل ٠١٨١٦٠٧١٨٥



المقـدمة

الحمد لله رب العالمين. الذى جعل الدين عند الله الإسلام. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد يكون المرء، غير مجانب للصواب. إذا قال: إن معرفة الأديان والمذاهب، أمر يهم الناس جميعا، سواء من يعتقدون بدين، ومن لا يعتقدون.

وحاجة الإنسانية إلى دراسة الأديان ترتبط بحاجة كل إنسان – خاصة المثقف – إلى الاطمئنان إلى سلامة تفكيره، وسلوكه، أو اعتقاده وتصرفاته[(١)].

ومن شأن رواد المعرفة، وطلاب العلم، ورجال الثقافة. أن يكونوا على دراية بالمذاهب والأديان. حتى لا يكون الإنسان بعيدا عن كل ما يمس الإنسان أو يلامس حياته، أو يتصل به من قريب أو بعيد.

ويذكر العلماء: أن علم الأديان، يبحث عن منشأ الأديان وتطورها، وفى الأسس التى ترتكز عليها الأديان المختلفة، وفى أوجه الاتفاق، أو الاختلاف فيما بينها.

وبعبارة أخرى: إنه يناقش تاريخ الأديان ، ويوضح فلسفتها ، ويوازن بينها.

---

(١) انظر الدكتور/ عمارة نجيب: الإنسان فى ظل الأديان ، ص٥ ، ط المكتبة التوفيقية بالحسين بمصر ، ١٩٧٦م .

فتاريخ الأديان: يبحث عن نشأة المعتقدات الدينية وتطورها، ومرتكزاتها، لدى الشعوب البدائية المختلفة ، والشعوب المتمدنة . فالغرض إذن: من دراسة الأديان هو: معرفتها.

وأما فلسفة الأديان: فإنها تبحث فى العلاقات بين الأسس التى تستند إليها الأديان المختلفة، وفى الغايات التى تهدف إليها. ويدخل ضمن مباحثها علم وراء الطبيعة، وعلم الكلام، أو اللاهوت، وعلم التصوف [1].

وأما مقارنة الأديان أو تاريخ الأديان المقارن. فإنه يدرس خصائص ومميزات كل دين، ويوازن بينها وبين خصائص ومميزات الأديان الأخرى[2].

ولقد قدم القرآن الكريم الدرس المنهجي الموضوعي الأول، فى مجال مقارنة الأديان.

ولقد جاء القرآن الكريم بالحديث المفصل، المستوعب عن الأديان، والعقائد، والملل، والنحل ، والمذاهب المختلفة المتنوعة ، وعرض مقالاتهم بدقة، واستقصاء ، ثم ناقشها وبين وجوه الزلل ، والخطل ، والبطلان والزيف فيها .

وقارن بينها وبين الدين الصحيح ، الذى أرسل الله به رسله ، عليهم الصلاة والسلام [3] .

---

(١) راجع الدكتور/ رشدى عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، القسم الأول ، ص١٨ ، ط دار الحرية ببغداد ، ١٩٧٦م .

(٢) المصدر السابق ، ص١٨ .

(٣) الدكتور/ محمد عبد الله الشرقاوي: الرد الجميل لإلهية عيسى ، المقدمة ، ص١٧ ، ط دار الهداية ، بمصر ١٤٠٦هـ .

وتجد ذلك واضحا فى حديث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى، حيث فصل القرآن مقالاتهم، واعتقاداتهم، ومذاهبهم.

ولم يعالجها متعجلاً فى نص أو نصين. وإنما جاء فيها بفيض غزير زاخر، يتناولها من أقطارها، ويكشف عن خباياها وأبعادها.

وعلى سبيل المثال: فإن الحديث عن بني إسرائيل جاء فى القرآن الكريم من أكثر المسائل نصوصًا، بعد العقائد.

تحدث القرآن فى المكي منه والمدني، على السواء، وفى السبع الطوال، وما بعدها، من الثماني والمثين، والمفصل. وتناولهم بالآية المفردة، وبالجملة المتصلة من الآيات[1].

وقد تحدث القرآن الكريم عن كثير من الأديان: سماوية كانت أو وضعية: فكما تحدث القرآن عن اليهودية والمسيحية تحدث كذلك عن عبدة الأصنام والطاغوت وسماها القرآن أديانا .

وتجد ذلك واضحًا ، حين ساق القرآن الكريم ، مقالة الملاحدة الدهريين ، والدهريون: هم الذين قالوا: بالطبع المحيى ، والدهر المفنى [2] .

يقول على لسانهم: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤] .

---

(١) د/ محمد عبد الله الشرقاوي : مقدمة الرد الجميل لإلهية عيسى ، ص١٨ ، وراجع د/ عبد الستار فتح الله سعيد فى: معركة الوجود بين القرآن والتلمود ، ص٦٩ – ٧٠ ، ط القاهرة .

(٢) الدكتور/ محمد عبد الستار نصار : العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلها ، ص١٠٦ ، ط دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٩هـ .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ومفهوم عقيدة الدهريين: خلو العالم عنْ المدبر الحكيم الخالق القادر، ورفض ما بعد هذه الحياة من حقائق الدار الآخرة.

والقرآن حين يعرض مقالة الدهريين يعرضها كما هي.

ثم يعقب عليها بأنها قائمة على الظن ، وليست وليدة العلم اليقيني .

وكفى بالظن طريقًا لرفض هذه العقيدة. لأن العقائد الصحيحة إنما تقوم على العلم اليقيني بكل مستويات اليقين (١) .

ونجد ذلك واضحًا ، فيما شاقه القرآن الكريم من مقالة الذين أنكروا البعث والحياة الآخرة .

قال تعالى: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٦-٣٧] .

وقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٣] .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة للمقارنة. وقد تحدث القرآن عن كثير من الأديان سماوية كانت أو وضعية .

فكما تحدث عن اليهود واليهودية والمسيح والمسيحية ، تحدث كذلك عن

(١) انظر: الدكتور: محمد عبد الستار نصار : العقيدة الإسلامية أصولها وتاريخها ، ص١٠٦ .

عبادة الأصنام والطاغوت والملائكة. وسماها القرآن أديانًا مع بطلانها[1] .

قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] .

ولقد كان طبيعيًا أن يهتم العلماء المسلمون ، بتأثير مباشر من القرآن — اهتمامًا بالغًا بدراسة أديان الأمم وعقائدها. وطقوسها. ومن هنا نشأ علم مقارنة الأديان [2].

ومن الطبيعي كما يقول الدكتور أحمد شلبي: أن هذا العلم ، لم يظهر قبل الإسلام ، لأن الأديان قبل الإسلام لم يعترف أي منها بالأديان الأخرى .

وكان كل دين يعد ما سواه من الأديان والأفكار هرطقة وضلالاً .

فاليهودية لم تعترف بالمسيحية ولا بالمسيح ، واعتبرت المسيح ثائرًا ، واستحق عندهم الحكم بالإعدام ، واعتبرت المسيحية نفسها وريثة اليهودية ، ولم تر مع وجودها وجودًا لليهودية .

ومثل ذلك موقف الهندوسية من البوذية والبوذية من الهندوسية [3].

بل وصل الأمر إلى أكثر من ذلك. إذ أنكرت كل طائفة دينية جميع الطوائف الأخرى المنتسبة لنفس الدين ، وعدت اتجاهاتها هرطقة وضلالاً. وربما حكمت كل منها بالإعدام على أتباع سواها .

وهذا الاتجاه كان هو الاتجاه العام بين الأديان وبين المذاهب .

ومن هنا لم يوجد علم مقارنة الأديان قبل الإسلام ، لأن المقارنة نتيجة للتعدد ، وليس التعدد معترفا به عند أحد ، فلم يوجد ما يترتب عليه ، وهو

---

(١) الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان (اليهودية) ، ص٢٧ ، ط مكتبة النهضة ، ١٩٧٨م .

(٢) الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان ص٢٥ .

(٣) الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان (اليهودية) ، ص٢٥ .

المقارنة [1].

وجاء الإسلام ، وكان موقفه بالنسبة للأديان الأخرى ينضوى تحت اتجاهين: الناحية النظرية والناحية الواقعية .

فمن الناحية النظرية: يعلن الإسلام، أنه الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأديان[2]. التى ترتبط بوحدة الإيمان ، ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة ، لا تقبل الجدل و التشكيك ، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمني بين الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى عباده .

وربما يكون لعامل الزمن أثره الواضح فى اختلاف التشريعات ، التى يفترض فيها أن تنسجم مع المستوى الفكري والمعاشي لمن تكون لهم ، ولكن الإيمان يبقى واحدًا فى أساسه .

وثمة آيتين فى القرآن الكريم تؤكدان هذه الحقيقة. حقيقة الإيمان وتغير التشريعات.

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] .

فالآية الأولى تعني: وحدة الإيمان فى أسسه .

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٦ بتصرف واختصار .

والآية الثانية: تعني متغيرات الشريعة ، وما يعود إلى الأعمال [(١)].

ومن هنا كان الإسلام يشتمل على امتداد فى المعتقد الديني ، يعرض لقضية البشرية ، من نشأتها إلى غايتها ، فى إيجاز وإجمال [(٢)]. وبالتالى كان المسلمون مطالبين بتصديق الأنبياء والرسل جميعًا .

قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام بالنسبة للأديان الأخرى. فإنه من الناحية الواقعية يعترف بالوجود الفعلي لجماعات غير مسلمة ، ويتحدث عن أهل الكتاب ، وعن حقوقهم ، وواجباتهم .

وفى ضوء هذا ، وجد ((علم مقارنة الأديان)) [(٣)].

وبكل تأكيد: كان اهتمام العلماء المسلمين ، بمقارنة الأديان ، نابعًا من القرآن الكريم ، الذى فتح الطريق أمام العلماء المتخصصين ، والدارسين .

ولهذا قام العلماء فعقدوا لهذا الغرض كتبًا مفردة أو فصولاً مطولة من

---

(١) راجع الدكتور/ أحمد السايح : الفضيلة والفضائل فى الإسلام ، ص٢٦ ، ط مجمع البحوث بالأزهر ، سنة ١٩٨٧م .

(٢) راجع الدكتور/ أحمد السايح: فلسفة الحضارة الإسلام ، ص٢٨، ط المجلس الأعلى بالقاهرة ، ١٤١٠هـ .

(٣) الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان (اليهودية) ، ص٢٦ – ٢٧.

مصنفاتهم [1].

ومن المشاهير الذين كتبوا فى مقارنة الأديان: النوبختي ٣٠٢هـ ويعتبر كتابه: ((الآراء والديانات)) أول كتاب فى هذا المجال .

وبعده كتب المسعودى (٣٤٦هـ) كتابين عن الديانات .

ثم جاء المسبحي (٤٢٠هـ) فكتب كتابه: ((درك البغية فى وصف الأديان والعبادات)) وهو كتاب مطول يقع فى حوالي ثلاثة آلاف ورقة [2].

ويذكر الدكتور الشرقاوي: أن المسعودي وابن خلدون كانا على علم واسع بكل ما يتعلق باليهودية والنصرانية وفرقهما المختلفة .

ويقول: إن بعض العلماء المسلمين كان فقيهًا فى التوراة والإنجيل. أمثال كمال الدين بن يونس الشافعي ، الذى قال فيه ابن خلكان: ((إن أهل الذمة من اليهود والنصارى كانوا يقرأون عليه التوراة والإنجيل ، فيفسرها لهم. وكانوا يعترفون بأنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله))

ثم هناك البيروني الذى يتحدث عن اليهودية فى كتابه: ((الآثار الباقية من القرون الخالية)) وعن الهندوكية ، وأديان الهند ، فى كتابه: ((ما للهند من مقولة فى العقل أو مرذولة)) بدقة ونزاهة عميقين)) [3].

ولقد كتب فى الأديان والمذاهب كل من: أبي منصور البغدادي (٤٢٩هـ) فى كتابه: ((الملل والنحل)) .

---

(١) الدكتور/ محمد عبد الله الشرقاوي: مقدمة الرد الجميل لإلهية عيسى ، ص١٨ .
(٢) الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان (اليهودية) ، ص٢٨
(٣) الدكتور/ محمد عبد الله الشرقاوي: مقدمة الرد الجميل لإلهية عيسى ، ص١٨ .

وابن حزم الأندلسي (٤٥٦) فى كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» [١].

وأبي الحسن الأشعري فى «مقالات الإسلاميين» وكتب الجاحظ رسالة فى الرد على النصارى .

وأبو البقاء صالح بن الحسين الجعفري كتابًا فى «الرد على النصارى» [٢].

وأبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: «رسالة فى الرد على النصارى».

وكتب كذلك أبو الحسن العامري المتوفى ٣٨١هـ كتابًا أسماه «الإعلام بمناقب الإسلام» [٣].

وصنف شيخ الإسلام أبو المعالي الجويني رسالة: «شفاء العليل فى الرد على من بدل التوراة والإنجيل» .

وكتب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية كتابًا تحت عنوان: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» .

ووضع ابن القيم كتابًا اسمه: «هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى» .

ووضع المهتدى عبد الله الترجمان والذى كان يعرف بالقس الكاثوليكي (نورميدا) كتابه: «تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب» .

وكذلك وضع المهتدى سعيد بن حسن الإسكندراني الذى كان يهوديًا

---

(١) ط بتحقيق الدكتور/ ألبير نصري نادر ، وأصدرته دار المشرق ببيروت .
(٢) وقد حققه وقدم له الدكتور/ محمد حسانين، وتم نشره بمكتبة المدارس بالدوحة ، ١٤٠٩هـ
(٣) يعمل الدكتور أحمد السايح والمستشار توفيق وهبه على تحقيقه.

وأسلم رسالة أسماها: ((مسالك النظر فى نبوة سيد البشر)) [1].

وغير هذا كثير مما زخرت به المكتبة العربية . .

وهناك مخطوطات كثيرة فى مقارنة الأديان ، وتحتاج إلى دراسة وتحقيق .

ومما يحسن أن يشار إليه: أن علم مقارنة الأديان، لم يكن وسيلة عند المسلمين ، للحط من الأديان الأخرى ، وإنما كان دراسة وصفية واقعية ، مستمدة من المنابع الأولى ، والمصادر الموثوقة لكل دين ، أو ملة ، أو مذهب .

وهكذا صنع المسلمون لدراسة الأديان علمًا مستقلاً، ومنهجًا علميًا سليمًا[2]، وبواسطة هذا العلم دخل الآلاف والملايين فى الدين الإسلامي[3].

ومما يسترعى الانتباه: أن علم مقارنة الأديان ، الذى انبثق من القرآن الكريم ، وتبحر فيه العلماء المسلمون . قد مر بفترات ضعف وركود .

فى عصور الضعف التى ألمت بالمسلمين اتجه أكثر فقهاء المذاهب إلى التعصب لمذاهبهم الفقهية ، وقل أو انعدم إطلاعهم على المذاهب الأخرى. ومن باب أولى قل أو أنعدم إطلاعهم على الأديان الأخرى وقضاياها .

ومما دفع بالمسلمين إلى إهمال علم مقارنة الأديان – بالإضافة إلى ما سبق – أن بعض المسلمين تبنوا الاتجاه الذى كان سائدا لدى اتباع الأديان السابقة للإسلام. فقد كان هؤلاء لا يعترفون بغير دينهم . وبالتالي لا يعترفون بإمكان المقارنة بين الأديان .

فلما اقتبس بعض المسلمين هذا الاتجاه ، دانوا به ، ووجد منهم من يهاجم

(١) راجع الدكتور/ محمد عبد الله الشرقاوى: مقدمة الرد الجميل ، ص٢٠ .
(٢) الدكتور/ رشدى عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، ص١١ .
(٣) الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان (اليهودية) ص٢٩ .

مقارنة الأديان. باعتبار: أن الإسلام لا يقارن بسواه. وقد نسى الذين يتجهون هذا الاتجاه: أن القرآن الكريم هو الذى وضع جذور هذا العلم ، ووجدت به بعض آيات تحمل اتجاه المقارنة (١).

ولا يخفى: أن علم مقارنة الأديان انتقل إلى علماء الغرب. فبرزوا فيه .

وألف علماء الغرب فى هذا العلم مئات الكتب. ومن شأن علماء الأمة الإسلامية أن يتعرفوا على ما كتبه العلماء الغربيون فى مقارنة الأديان، فإنه مفيد للعلماء المسلمين الذين يعنون بمقارنة الأديان.

ولا يخفى: أن انتشار علم مقارنة الأديان، واهتمام العلماء به، وإطلاع الناس عليه، عامل من عوامل تبيان الحق، والتعرف على الإسلام.

وإن كلمة «الدين» من أكثر الكلمات استعمالاً ، فى القديم والحديث ، ومن أكثر الكلمات استعمالاً وانتشارا فى دنيا الناس .

ومن أراد أن يتعرف على دين الإسلام ، أو دين المسيحية ، أو اليهودية ، أو المجوسية ، أو البوذية ، أو الوثنية ، أو غيرهما من الأديان التى ظهرت فى الوجود ، يجمل به أن يوفر همته قبل كل شيء على تعرف المعنى الكلي الذى يجمعها ، والقدر المشترك الذى تنطوي عليه فى جملتها .

إذ أنه من الواضح أنه وإن تفاوتت الأديان فى نفسها ، أو فى مصادرها. أو فى قيمها. فإنها كلها يجمعها اسم «الدين» فلابد أن تكون هناك وحدة معنوية تنتظمها ، ويعبر عنها بهذا الاسم المشترك (٢).

---

(١) انظر الدكتور/ أحمد شلبي: مقارنة الأديان - اليهودية ، ص٢٩-٣٠ .

(٢) الدكتور/ محمد عبد الله دراز الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص٢٨ ، ط دار القلم بالكويت ، ١٤٠هـ .

فما هي تلك الوحدة ؟.. ما الدين ؟

وللإجابة على هذا السؤال. لا غنى عن الرجوع قبل كل شيء إلى معاجم اللغة العربية [1].

والمعاجم اللغوية المختلفة تقول لنا: إن الدين اسم عام يطلق فى اللغة العربية على كل ما يتعبد الله تعالى به .

كما يطلق على عدة معان عدة. منها: الملك، والسلطان، والقهر، والطاعة، والقضاء، والعادة، والمذهب، والشريعة، والملة [2].

وجاء فى اللسان: الدين مفرد أديان.

يقال: دان بكذا ديانة. وتدين به ، فهو دين، ومتدين. ودانه دينًا أي أذله واستعبده.

قال أبو عبيده: قوله: ((دان نفسه)) [3] أي أذلها واستعبدها. وقيل: حاسبها.

والدين: ما يتدين به الرجل ، والدين: السلطان .

والدين: الورع .

والدين: الطاعة [4].

وجاء فى القاموس: ((الدين: الجزاء، ولإسلام، والعادة، والعبادة، والطاعة، والذل، والداء، والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء ،

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٨ .

(٢) الدكتور/ رشدى عليان وسعدون الساموك: الأديان – دراسة تاريخية مقارنة ، ص١٩ .

(٣) هذه العبارة جزء من حديث: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت)) .

(٤) انظر: ابن منظور المصري: لسان العرب ، مادة ((دين)) .

والسلطان، والملك ، والحكم ، والسيرة ، والتدبير ، والتوحيد ، واسم لجميع ما يتعبد الله – عز وجل – به ، والملة ، والورع» [1].

وإن المتأمل فيما ذكرته المعاجم اللغوية ، لمعاني كلمة الدين. يجد أن هذه المعاني كثيرة ، وبعيدة عن بعضها .

والدكتور/ محمد عبد الله دراز فى كتابه: «الدين»: أثبت أن المعاجم اللغوية لا تضع أيدينا على المعنى اللغوى المراد بمفهومه الدقيق لتعريف كلمة الدين. وأنها إنما تكشف لنا فحسب، عن الوجوه المتشعبة لمعاني هذه الكلمة .

والتمس لهذه المراجع المعجمية العذر فى أنها إنما وضعت لضبط الألفاظ ، لا لتحديد المعاني .

وأن مهمتها هى لتقويم اللسان. فللمعاجم العذر إن هي فى بعض الأحيان عرفت الشيء بنفسه أو بضده .

فيقول: البلاغ: ما يتبلغ به، والدواء: ما يتداوى به، والدين ما يدان به [2].

وقد أرجع الدكتور دراز تلك المعاني المختلفة لكلمة «دين» إلى ثلاثة معان، تكاد تكون متلازمة، وأرجع ما يلحظ من تفاوت بين هذه المعاني إلى أن كلمة: «دين» ليست كلمة واحدة ، بل هى ثلاث كلمات .

وبعبارة أدق: إنها تتضمن ثلاثة أفعال من فعل متعد بنفسه «دانه يدينه».

---

(١) انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط ، مادة ((دين)) .

(٢) راجع الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين ، ص٢٩ ، وانظر كذلك الدكتور. محمود بن الشريف ، الأديان فى القرآن ، ص٢٠ ، ط دار عكاظ بجدة ، ١٩٧٩م .

وتارة من فعل متعد باللام ((دان له)). وتارة من فعل متعد بالباء. ((دان به)) .

وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التى تعطيها الصيغة [1].

١- فإذا قلنا: ((دانه يدينه)) عنينا بذلك: أنه ملكه ، وحكمه ، وساسه ، ودبره ، وقهره ، وحاسبه ، وقضى فى شأنه ، وجازاه ، وكافأه ، فالدين فى هذا الاستعمال يدور على معنى الملك ، والتصرف بما هو شأن الملوك من السياسة ، والتدبير ، والحكم ، والقهر ، والمحاسبة ، والمجازاة .

ومن ذلك ((مالك يوم الدين)) أي يوم المحاسبة والجزاء .

وفى الحديث: ((الكيس من دان نفسه)) أي حكمها وضبطها .

والديان الحاكم القاضى .

٢- وإذا قلنا: ((دان له)) أردنا: أنه أطاعه ، وخضع له. فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة ، والورع .

وكلمة ((الدين لله)) يصح منها كلا المعنيين: الحكم لله ، أو الخضوع لله .

وواضح أن هذا المعنى الثاني ملازم للأول ، ومطاوع له. ((دانه فدان له)) أي قهره على الطاعة ، فخضع وأطاع .

٣- وإذا قلنا: ((دان بالشيء)) كان معناه أنه اتخذه دينًا ومذهبًا أي اعتقده أو اعتاده أو تخلق به .

فالدين على هذا هو المذهب والطريقة ، التى يسير عليها المرء ، نظريًا أو

---

(١) د/ دراز: الدين ، ص٣٠ . وراجع كذلك الدكتور/ رشدي عليان: وسعدون الساموك فى كتاب الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، ص٢٠ .

عمليًا .

فالمذهب العملي لكل امرئ: هو عادته وسيرته. كما يَقال: ((هذا ديني وديدني)).

والمذهب النظري: هو عقيدته ، ورأيه الذى يعتنقه. ومن ذلك قولهم: دينت الرجل. أي وكلته إلى دينه ، ولم اعترض عليه فيما يراه سائغًا فى اعتقاده [١].

ولا يخفى: أن هذا الاستعمال تابع أيضًا للاستعمالين قبله. لأن العادة أو العقيدة ، التى يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ، ويلتزم اتباعها [٢].

وجمل القول فى هذه المعاني اللغوية:أن كلمة الدين عند العرب ، تشير إلى علاقة بين طرفين ، يعظم أحدهما الآخر .

- فإذا وصف بها الطرف الأول. كانت خضوعًا وانقيادًا .

- وإذا وصف بها الطرف الثاني. كانت أمرا وسلطانًا ، وحكمًا وإلزامًا .

- وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين. كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذى يعبر عنها [٣].

ويمكن أن يقال: إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد .

- فإن الاستعمال الأول: الدين هو إلزام الانقياد .

- فإن الاستعمال الثاني: الدين هو التزام الانقياد .

---

(١) الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين ، ص٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ص٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣١ .

- فإن الاستعمال الثالث: الدين هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له [1].

والذى يعنينا من كل هذه الاستعمالات. هو الاستعمالان الأخيران وعلى الأخص الاستعمال الثالث. فكلمة الدين التى تستعمل فى تاريخ الأديان لها معنيان لا غير :

- أحدهما: هذه الحالة النفسية التى نسميها التدين .

- وثانيهما: تلك الحقيقة الخارجية أو الآثار الخالدة ، التى يمكن الرجوع إليها فى المبادئ التى تدين بها أمة من الأمم اعتقاد أو عملاً [2].

ولا يخفى: أن التعرف على اشتقاقات كلمة الدين وتصريفاتها يكشف لنا عن أصالة الكلمة فى اللغة العربية ، وجذورها العميقة .

وقد ورد لفظ الدين ، فى القرآن الكريم مفردًا ومعطوفًا فى تسعة عشر موضعًا [3].

وإذا كنا عرفنا معنى كلمة «دين» وأصلها فى اللغة. فإن الأمر يقتضي أن نعرف معنى كلمة الدين ، فى اصطلاحات العلماء ، وأعراف الناس .

ولا يخفى: أن آراء العلماء المعنيين ، بتاريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جدا فى وضع علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين .

وصار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه بصورة يجمع على أنها تمثل

---

(١) المصدر السابق ، ص٣١ . وانظر كذلك د. رشدي عليان: وسعدون الساموك: الأديان (دراسة تاريخية مقارنة) ، ص٢١ .

(٢) الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين ، ص٣٢ .

(٣) راجع: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. مادة دين .

الدين. كما أنه من الصعوبة إيجاد تعريف شامل لماهية الدين ، تشمل الأديان البدائية والمتكاملة ، والسبب فى ذلك.أن لكل دين نواحي خاصة به ، سواء فى الشعور ، أو فى الاعتقاد ، أو فى العبادة .

وعلى هذا فليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين [1].

١- لأن الذى يتعرض لهذا المطلب الصعب ، سوف يجد نفسه أمام أشكال مختلفة ، وألوان متباينة من الأديان ، لا يكاد يحصرها عد ، أو يحدها حد. وهذه الأديان كلها ، لا تجمعها وحدة واحدة ، ولا تقع تحت جنس قريب. ومن هنا يصعب استخراج معنى يشملها جميعًا .

٢- وسوف يجد أن كل دين من هذه الأديان ، ينشعب إلى شعب كثيرة وينصدع إلى صدوع عديدة. فلا يكاد المرء يبدأ البحث ، حتى يجد نفسه ، أمام جمع هائل من الأديان ، وأمام كل دين ركام هائل من المذاهب والشيع ، والملل والنحل ، والطوائف والفرق . وقد يصل أمر الخلاف بهذه الفرق والشيع ، التى تفرعت عن الدين الواحد ، حدا يخرج بها عن الأصول العامة لهذا الدين الذى خرجت منه ، وتفرعت عنه .

٣- **يضاف إلى ذلك:** أن الأديان غالبًا لا تثبت على حالة واحدة ، فعند تطبيقها موضوعيًا ، يقع عليها الكثير ، من التغيير والتبديل ، مما يبعد بها قليلاً أو كثيرًا ، عن أصولها النظرية. وذلك أمر يتطلب من الباحث نظرة فاحصة، وجهدا مضاعفًا ، ويحتاج منه دقة فى التحليل ، وحيدة فى التقرير ، وموضوعية فى التفكير ، حتى يصل إلى هدفه ، ويخلص إلى غايته [2].

---

(١) انظر: العميد عبد الرازق محمود: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب. المجلد الأول، ص١٩، ط الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ١٩٨١م .

(٢) راجع الدكتور/ محمود مزروعة: دراسات فى الدين بحوث ممهدة لدراسة الأديان ص٧-٨،

ولهذا يذهب البعض إلى أن اختلاف العلماء حول تعريف الدين ، وكثرة التعريفات التى وضعوها له ، دليل على أنه لا يصح وضع تعريف للدين ، أو تحديد مفهوم له .

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى ذهب يقول:

«على أن الحيرة ، حيرة العلماء فى تحديد عناصر الدين. وهذا الخلاف بينهم على وضع تعريف يعرب عن حقيقته. كل أولئك يدل على أن العلم لم يكشف الحجب عن الدين وأسراره. وربما كان من غرور العقل البشري ، أن يزعم لنفسه القدرة على هدم بناء متين ، متغلغل الأسس فى الفطرة الإنسانية من قبل أن يعرف مواد هذا البناء ، أو يعرف كيف تم بناؤه» [1].

ومن هؤلاء أيضًا الأستاذ عبد الكريم الخطيب الذى يرى :

١- أن الدين صلة شخصية روحية بين الإنسان والإله ، وبين السيد وربه المعبود .

٢- أن الدين عاطفة إنسانية فردية. حولها تجتمع كل عواطف الإنسان .

٣- ولأن الدين عاطفة فردية وصلة شخصية ، فإنه يستحيل وضع مدلول لفظي يطالع فيه كل متدين حقيقة الدين الذى يؤمن به .

٤- استحالة وضع تعريف للدين ؛ لأن الناس يختلفون من حيث الصدق ، والإيمان ، واليقين. لأن الدين مكابدة فردية ، ومعاناة ذاتية .

دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ، ١٩٨٩م .

(١) انظر الدكتور/ محمود مزروعة: دراسات فى الدين ، ص٩ ، وراجع الشيخ مصطفى عبد الرزاق: الدين والوحي والإسلام ، ص٢١ .

٥- إن الوضع السليم لكل متدين لكي يعرف دينه ، ويكتشف حقيقة هذا الدين. أن ينطوى إلى الداخل – وليس إلى الخارج – لكي يكتشف هذا الدين، دينه هو الشخصي ، الذى لا رابطة بينه وبين الأديان الأخرى فى الخارج. بل لا رابطة بينه وبين الآخرين ممن يدينون بنفس دينه. ويعتقدون عين عقيدته. والمتدين حسبه فى اكتشافه دينه. أن يجد الإحساس الديني الذى يتخلق فى كيانه من مفاهيم عقيدته ، وتصوراته لتلك المفاهيم [(١)].

وإن الذى يتفرس فى مقولة الأستاذ عبد الكريم الخطيب أعماقًا وأبعادًا يلحظ بوضوح : أن هذه المقولة ، تخالف الحقيقة ، وتجافي الواقع ، وليس لها من فلسفة إلا إبعاد الدين عن حركة الحياة .

ولما كانت مقولة الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، بعيدة عن الصواب ، فقد واجهها العلماء بالتعقيب وبيان الصواب .

١- لأن الدين – وإن كان صلة روحية بين الإنسان وربه ، ومكابدة ذاتية – فهو إلى ذلك حقيقة خارجية ، لها مظاهرها وآثارها الواضحة على الفرد والجماعة على السواء .

٢- أن الأديان جميعها تتميز بشعبيتها وعموميتها بين الأفراد المتبعين لها. فهي – وإن كانت معاناة فردية – إلا إنها عامة وشعبية. وليس أدل على ذلك من العبادات والطقوس التى يؤديها المتبعون لها فى كل دين. والتى تقوم أساسًا على الإجماع والكثرة .

٣- إن الأديان – وإن كانت عاطفة فردية – فإنها لم تترك لكل فرد حرية

---

(١) انظر: الدكتور/ محمود مزروعة: دراسات فى الدين ، ص١٣ ، وراجع الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه: ((الله ذاتا وموضوعا)) ص٣-٦ .

أن يتصرف فيها كما يشاء ويكيفها كما يريد. ولكن كل دين مهما كانت صفته قد قام على أسس وقواعد ، ونظم ، وتشريعات ، وعقائد .

وهذه كلها يجب أن يتبعها ويسير عليها ، ويتمسك بها كل من يتدين بهذا الدين ويعتنقه. معنى هذا أن الدين ليس فى جوهره عاطفة شخصية. وإنما هو حقيقة خارجية ،تحكمها تعاليم معنية ،وعقائدوتشريعات محددةولم يترك للجانب الشخصي من كل ذلك إلا مدى الإخلاص فى اتباع هذه التعليمات والتمسك بها .

٤- أن الدين حقيقة عامة فى جوهره ، أما الجانب الشخصي فيه ، فهو مقصور على مدى التمسك به ، والسير على تعاليمه ، والإخلاص فى تطبيق هذه التعاليم. وليس أدل على ذلك من أن الدين ظاهرة عامة تصطبغ بها تصرفات الأفراد والجماعات على سواء .

٥- وتظهر هذه الصبغة فى كل مناحي الحياة الفردية والجماعية. لا يكاد يخلو منها جانب صغير أو كبير. مما حدا بالكثيرين من العلماء ، أن يذهبوا إلى أن الدين ، هو العامل الأساسي ، وراء كل التغيرات التى تطرأ على حياة الأفراد والجماعات. سواء فى ذلك الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية [١].

وإذا كان هناك فريق من العلماء يرى صعوبة وضع تعريف للدين. فإننا نرى أن هناك أيضًا كثير من العلماء يرون أنه لابد من ذكر تعريف للدين يميزه عن غيره من المذاهب المختلفة .

وتبدو وجهة نظر هؤلاء العلماء أكثر قبولاً. لأنه من غير المعقول أن تعرف المذاهب الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، وغيرها. ولا يعرف الدين

(١) الدكتور/ محمود مرزوعة: دراسات فى الدين ، ص١٤-١٥ .

بتعريف يفهم الناس منه أنه للدين .

ويقول الدكتور محمد دراز: ما هي الخصائص والعناصر الجوهرية التى تميز العقيدة الدينية أو السلوك أو الشعور الديني بوجه عام عن سواها ؟

لا ريب أن تحديد هذه الخصائص تحديدًا حقيقيًا ، لا يتم إلا فى نهاية العلم بعد استعراض جميع النحل ومقارنتها ، واستنباط القدر المشترك بينها .

ولكنه إذا تعذر علينا الآن فعلينا أن نعرض الديانات أنفسها لنستخرج منها الحد الأدنى المشترك بينها ، وفى وسعنا أن نعرض طائفة من التعريفات التى سبقنا بها العلماء . سواء منها ما وضعه الإسلاميون لكلمة الدين ، وما وضعه الغربيون للكلمة التى تقابلها [(١)].

أما الإسلاميون. فقد ذكروا للدين تعريفات ، مختلفة فى ألفاظها ، متحدة فى معناها. وهي:

١- «الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إياه إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل» [(٢)].

٢- «الدين وضع إلهي يرشد إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى الخير فى السلوك والمعاملات» [(٣)].

٣- «الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول» [(٤)].

---

(١) راجع الدكتور/ محمد دراز: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص٣٣ .

(٢) انظر التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ، ص٥٠٣ ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٩ ، ص٣٦٨ .

(٣) راجع الدكتور/ محمد دراز: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص٣٤ .

(٤) راجع الجرجاني: التعريفات ، ص٦٩ .

٤- الدين وضع إلهي ، يحسن الله تعالى به ، إلى البشر ، على لسان واحد منهم ، لا كسب له فيه ، ولا صنع ، ولا يصل إليه بتلق ، ولا تعلم» [١].

ويلاحظ أن تعريف الإسلاميين للدين قاصر على الدين المنزل. وذلك لجعلهم كلمة «وضع إلهي» قيدا فى جميع التعاريف. وكأنهم بذلك لا يسمون الأديان الطبيعية «الوضعية» أى التى قام الإنسان بوضعها بنفسه ، عن طريق عوامل إنسانية كالوثنية والبوذية - دينًا ، مع أن القرآن الكريم قد سماها بذلك .

حيث قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

وقال: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] .

وذلك يرجع إلى أنهم قد قصروا التعريف على الدين الصحيح. وهو الدين المنزل .

وأما الأديان الوضيعة فهي - من وجهة نظرهم - باطلة كلها ، بغض النظر عن فحواها وغاياتها [٢].

هذا وقد اعتبر كثير من الإسلاميين: الدين ، والإسلام ، والملة ، والشريعة والمذاهب. كلمات مترادفة. فتراهم يقولون: دين الإسلام ، وملة الإسلام ، وشريعة الإسلام ، ومذهب الإسلام [٣].

والحق أن الدين أعم من كل ذلك ، فهو أعم من الإسلام. إذ أن الإسلام

---

(١) انظر محمد عبده: تفسير المنار ، الجزء الثاني ، ص٦٩ .
(٢) انظر الدكتور/ رشدى عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، ص٢٢.
(٣) انظر المصدر السابق ، ص٢٢ . وراجع محمد علي ناصر: أصول الدين الإسلامي ، ص٤ ، والجرجاني: التعريفات ، ص٩٤ .

دين ، وليس كل دين إسلامًا .

وهو أعم من الملة والشريعة ؛ لأنهما اسم لما عدا العقائد من العبادات والمعاملات.

والدين: اسم للجميع. وهو أعم من المذهب ؛ لأن المذهب اسم لجملة من آراء اجتهادية ، استنبطها بعض مجتهدي المسلمين ، وعمل بها جمهور منهم كالمذاهب المعروفة [1].

ويذكر بعض الباحثين: أن الإسلام سمي ملة. لأن الملك يمليه على الرسول. والرسول ﷺ يمليه علينا .

وسمى شريعة من حيث أن الله شرعه لنا أي بينه لنا على لسان النبي ﷺ [2].

هذا ما ذكره الإسلاميون ، وما يتعلق بتعريفات الإسلاميين .

أما العلماء غير الإسلاميين فإنهم قد اختلفت عباراتهم فى تعريف الدين ، تبعًا لاختلاف تخصصاتهم ، والجانب الذى نظروا من خلاله إلى الدين. وسوف نذكر نماذج من تعريفات هؤلاء العلماء :

- يقول سيسرون فى كتابه ((عن القوانين)): ((الدين هو الرباط الذى يصل الإنسان بالله)) .

- ويقول كانت فى كتابه: ((الدين فى حدود العقل)): ((قوام حقيقة الدين. شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة)) .

---

(١) انظر الدكتور/ رشدى عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، ص٢٢ .

(٢) انظر الدكتور/ مبارك حسن حسين: بحث فى مقارنة الأديان ، ص٦ .

– ويقول الأب شاتل فى كتابه ((قانون الإنسانية)): الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه)) .

– ويقول: روبرت سبنسر فى خاتمة كتاب: ((المبادئ الأولية)): ((الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية. هو العنصر الرئيسي فى الدين)) .

– ويقول تايلور فى كتاب ((المدنيات البدائية)): ((الدين هو الإيمان بكائنات روحية)) .

– ويقول ماكس ميلر فى كتاب ((نشأة الدين ونموه)) : ((الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، هو التطلع إلى اللانهائي. هو حب الله)) .

– ويقول إميل برنوف. فى ((علم الديانات)) : ((الدين هو العبادة والعبادة عمل مزدوج. فهي عمل عقلي ، يعترف الإنسان بقوة سامية ، وعمل قلبي ، أو انعطاف محبة ، يتوجبه به إلى رحمة تلك القوة)) .

– ويقول ريفيل فى ((مقدمة تاريخ الأديان)) : ((الدين هو توجيه الإنسان سلوكه ، وفقًا لشعوره بصلة بين روحه ، وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه ، وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها)) .

– ويقول دور كايم فى ((الصور الأولية للحياة الدينية)) : ((الدين هو مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة.

اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة» [1].

- ويقول سلفان بيريسيه: «الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية» .

- وأما موريس جاستروف. فقد وضع قواعد لتعريف الدين. هي:

١- شعور الناس بوجود قوة أو قوى متعددة أعظم منهم شأنًا . وغير مسخرة لهم .

٢- اعتقاد الناس بأن لهم صلة بهذه القوة أو القوى .

٣- سعي الناس إلى إيجاد واسطة لتوثيق هذه الصلة [2].

وهناك تعريفات أخرى كثيرة ذكرها غير الإسلاميين ، وليس من شأننا أن نذكرها كلها. ويكفي ما وقع اختيارنا عليه من هذه التعريفات. والذي يستعرض تعريفات الدين ، لدى مختلف العلماء يمكن أن يلحظ:

١- أنه ليس في تلك التعريفات تعريف جامع مانع للدين من حيث هو دين

٢- أن كل تعريف على حدة يحمل وجهها أو أكثر من ضوء الصواب ، بصدد نقطة أو أكثر من نقاط الدين. وكل تعريف على حدة ينتهي بنقض كل تعريف آخر على حدة [3].

---

(١) انظر الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين بحوث ممهدة في تاريخ الأديان ، ص٣٤-٣٥ .

(٢) راجع العميد: عبد الرازق محمد أسود: المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ، المجلد الأول ، ص٢١.

(٣) انظر: رشدي عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، القسم الأول ، ص٢٥ .

إن ظاهرة الدين أكثر تعقيدًا ، وتشابكًا ، وشمولاً ، لجوانب عديدة أن تعرف تعريفًا مختصرًا. ولذا يجب من البدء أن نفهم مصطلح الدين بأوسع معنى يتناسب مع استعمالة التقليدي المأثور .

ومعنى ذلك: أن كل شيء يقع فى نطاق الديانات عبر التاريخ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ، عند فهم المدى الذى يتسع له اللفظ ، كما يجب ألا نغفل فى هذا الصدد أي عنصر نعتقد أهميته فى الارتباط بهذه الظاهرة الجليلة [(١)].

وإذا أردنا أن نستخلص – بعد ذلك – القواعد التى يقوم عليها تعريف الدين من حيث هو. لوجدنا :

١- أن مبدأ الألوهية – أي الاعتقاد بقوة أو قوة غيبية – هو أهم تلك القواعد التى لابد أن يقوم عليها تعريف الدين .

٢- والقاعدة الثانية يقوم عليها تعريف الدين هي: اعتقاد المتدين بوجود صلة له بهذه القوة أو القوى ، يدفعه ذلك إلى التوجه عليها ورهبة ، ملتمسًا عونها ، مؤملاً تحقيق رغباته ، وتأمين حاجاته .

٣- والقاعدة الثالثة. هي سعي المتدين لتوثيق صلته بهذه القوة أو القوى. وذلك بخضوعه التام ، عن رغبة واختيار ، وتوجهه إليها بالتمجيد ، والتقديس ، والطاعة ، والعبادة [(٢)].

ويقول العلماء: إن التعريف التام لماهية الدين هو: «الاعتقاد بوجود ذات

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٥ .

(٢) انظر الدكتور/ رشدي عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، القسم الأول ، ص٢٣-٢٤ .

أو ذوات غيبية علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير ، للشئون التى تعني الإنسان..اعتقاد من شأنه ، أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد» [1].

وبعبارة موجزة: «الدين هو الإيمان بذات إلهية ، جديرة بالطاعة والعبادة» [2].

وهذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية ، بمعنى التدين ، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية. فيمكن القول بأنه: «جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد العلمية التى ترسم طريق عبادتها» [3].

الاعتقاد شيء مركوز فى النفس ، مستقر فى قلب الإنسان. لا يستطيع إنسان أن ينكره. فالنفس أو الفكرة ، خلقها الله تعالى ، وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق. وإن الإنسان مهما ابتعد عن منهج الله ، فلن يستطيع أن يغير فطرته .

قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] .

وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠] .

(١) زاجع الدكتور/ محمد عبد الله دراز: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص٥٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص٥٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص٥٢ .

فعاطفة الاعتقاد أمر غريزي ، ومشترك بين الناس عامة ، فى كل عصر ومكان. فإنه لم تخل جماعة من الناس ، فى أي زمان من عقيدة دينية ، على نحو ما [١].

وإن كل الأديان بلا استثناء تفصح بشتى الطرق ، عن حقيقة لا مناص من التسليم بها ، وعدم الحاجة فيها. وهي أن الإنسان لا يقف ، ولا يمكن أن يقف وحيدًا فى هذا العالم. فهو فى الواقع مرتبط من الناحية الحيوية الفعلية ، ومعتمد من الناحية الواقعية بقوة أو بقوى داخل وخارج الطبيعة والمجتمع .

والإنسان يشعر فى قرارة نفسه أنه ليس المركز المتوحد ، للقوة المستقلة القادرة ، على الصمود والوقوف ، فى وحدة منفصلة عن هذا العالم .

إن هذا الشعور لا يفلت منه أعتى العتاة ، ولا أطغى الطغاة ، ولا أسمى المحتلين لمراكز الجاه والسلطان ، مهما بدا هذا الإنسان ، فى مثل هذا الجاه والسلطان الذى يشكل ستارا رقيقًا سرعان ما تهتكه الخلوة أو الانفراد [٢].

وفى هذه النقطة ، نقطة عدم استغناء الإنسان ، وإحساسه بالحاجة إلى غيره وشعوره بالانتماء إلى قوة أو قوى خارجية ، وموقفه من الاعتماد على هذه القوة ، أو هذه القوى داخل المجتمع وخارجه ، وداخل الطبيعة وخارجها .

نقول فى هذه النقطة بالذات: نجد الإطار أو المحور الذى تدور عليه عقيدة الإنسان ، تصورا وفكرا ، ثم نزوعا وميلا ، ثم فعلا وسلوكا [٣].

---

(١) الدكتور/ حمد يوسف موسى: الإسلام والحياة ، ص٧ ، ط مكتبة وهبة ، القاهرة .

(٢) الدكتور/ محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان ، ص٢٣ ، ط دار الثقافة بالدوحة ، ١٩٨٥م .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٥ .

فالإنسان لا غنى له عن الدين ؛ لأنه يحسه فى نفسه شعورا ووجدانا ، ويشير إلى هذا الشعور والوجدان .

ما رواه أبو هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة)) [1].

وفى آية يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] .

ففي هذه الآية يبين الله تعالى ، أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلا بعد نسل ، على هيئة ذر وذلك قبل خلقهم فى الدنيا ، وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

فأجابوا: ((بلى شهدنا)) بذلك. فالله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته ، حتى لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين أو غير عالمين [2].

فطبيعة الإنسان فيها استعداد فطري لمعرفة الله. وهذه الفطرة متأصلة فى

---

(١) رواه البخاري. كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي ، جـ٣ ، ص٢١٩ ، وروراه الإمام أحمد فى مسنده ، جـ٢ ، ص٢٥٣ .

(٢) راجع ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ، الجزء الثاني ، ص٢٦٤ .

الإنسان ، وموجودة منذ الأزل فى أعماق روحه [1].

ومن هنا كان الاعتقاد أمرًا لابد منه ، وأن الدين الحق ، رحمة للناس جميعا ، على اختلاف عقولهم ، وقدرتهم على التفكير ، وأنه هدى ونور ، وإن العلم لا يغني عنه شيئًا [2].

فالاعتقاد أو الدين عنصر ضروري. والإنسانية بحاجة إليه ، للكمال النفسي والروحي. فالإنسان جسم وروح ، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة [3].

ويرى ماكس موللر: أن الدين قوة من قوى النفس ، وخاصية من خواصها، وأن البشر بتأثير هذه القوة ، وبأسماء ورموز مختلفة متعددة ، تأهبوا لإدراك الأسرار الغامضة ، وأن فكرة التعبد من الغرائز البشرية التى فطر عليها الإنسان ، منذ نشأته الأولى [4].

ويرى كثيرون ومنهم «بنيامين كونستان» أحد مؤرخي الأديان: أن الدين من العوامل التى سيطرت على البشر ، وأن التحسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة ، ومن المستحيل أن نتصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا عقيدة الدين [5].

---

(١) الدكتور/ سامى عفيفى حجازى: العلاقة بين العقيدة والأخلاق فى الإسلام ، ص٥٣ .

(٢) الدكتور/ محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة ، ض١٠ . وراجع الدكتور/ أحمد السايح: علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة ، ص١٨ ، ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ، ١٩٩٠م .

(٣) أنور الجندى: منهج الإسلام فى بناء العقيدة والشخصية ، ص٣٩ .

(٤) راجع الدكتور/ رشدي عليان وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة، ص٢٧-٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢٨ .

ويقول الدكتور دراز: لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة فى الجماعة لا قيام لها إلا بالتعاون بين أعضاءها. وأن هذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته .

وأن هذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع ، يكفل مهابته فى النفوس ، ويمنع انتهاك حرماته. تلك كلها مبادئ مقررة ، وإنما الشأن كل الشأن فى هذا السلطان النازع الوازع .

والذى نريد أن نثبته هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها ، فى كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته ، وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع فى يده ولا عنقه ، ولا يجري فى دمه ، ولا يسري فى عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنساني وروحاني. اسمه الدين والعقيدة [١].

أجل.. إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ، ولا سلطان الحكومات ، بكافيين وحدهما ، ولإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل .

فإن الذى يؤدى واجبه ، رهبة من السوط أو السجن ، أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يلهمه ، متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ، ضمانًا

---

(١) الدكتور/ محمد عبد الله دراز الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص٩٨-٩٩ .

للسلام والرخاء ، وعوضًا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي .

ذلك أن العلم سلاح ذو حدين: يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولابد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقي ، يوجهه لخير الإنسانية عمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد. ذلكم الرقيب. هو الإيمان والعقيدة [1].

والإيمان على ضربين:

١- إيمان بقيمة الفضيلة ، وكرامة الإنسانية ، وما إلى ذلك من المعاني المجردة ، التي تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها ، ولو أعفيت من التبعات الخارجية ، والأجزية المادية .

٢- وإيمان بذات علوية ، رقيبة على السرار ، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها ، وتلتهب المشاعر بالحياء منها أو بمحبتها أو بخشيتها ، ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطانا على النفس الإنسانية ، وهو أشدها مقاومة لأعاصير الهوى ، وتقلبات العواطف ، وأسرعها نفاذ فى قلوب الخاصة والعامة. من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس ، على قواعد العدالة والنصفة. وكان لذلك ضرورة اجتماعية ، كما هو فطرة إنسانية [2].

ويعتبر علماء الاجتماع: الدين من أهم القواعد التى قام عليها بنيان المجتمع البشري ، وأنه قمة النماذج الخلقية المثالية ، التى تقبلها المجتمع لرسم

---

(١) المصدر السابق ، ص٩٩ .

(٢) الدكتور/ محمد عبد الله دراز الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص٩٩-١٠٠ .

العلاقات الاجتماعية ، على أسس إنسانية واقعية [1].

وإن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة. ليست كل مهمتها أنها المبعث القوى لتهذيب السلوك ، وتصحيح المعاملة ، وتطبيق قواعد العدل ، ومقاومة الفوضى والفساد. بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثرا فى كيان الجماعة .

ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم. لا يعدله رباط آخر من الجنس ، أو اللغة ، أو الجوار ، أو المصالح المشتركة [2].

وكتاب: الإعلام بمناقب الإسلام للإمام أبى الحسن العامرى المتوفى سنة ٣٨١هـ يدور حول الأديان .

ولذلك كان كتابًا مفيدًا ومهما فى هذا العصر الذى بدت فيه حاجة الناس إلى التعرف على الأديان وما بينها من وشائج القربى واللقاء.

* * *

(١) العميد/ طه الهاشمى: تاريخ الأديان وفلسفتها ، ص٣٥ .

(٢) الدكتور/ محمد عبد الله دراز الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص١٠١.

أبو الحسين العامرى

هو أبو الحسين محمد بن أبى ذر يوسف العامرى النيسابورى. من كبار فلاسفة المسلمين والإسلام فى القرن الرابع الهجرى .

ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل مع كبار فلاسفة الإسلام. وقد نشأ العامرى محبا للفلسفة ودرسها على أبى زيد البلخى بخرسان. وعرف بعد ذلك – كما يذكر ياقوت فى ((معجم الأدباء)) . بأنه الفيلسوف النيسابورى .

وكان العامرى – رحمه الله – محبا للترحال ،وملاحظة أحوال الناس وتقلبات الأيام والدول. كما نبغ فى المنطق والفلسفة وشرح كتب أرسطاطاليس، وألف كثيرًا من المصنفات.

منها: التقرير لأوجه التقدير ، والأمد على الأبد ، والسعادة والإسعاد ، والإعلام بمناقب الإسلام. وهذا الكتاب أهداه إلى أبى نصر .

وقد كان العامرى علمًا من الأعلام ، وصاحب ثقافة واسعة متنوعة. تناولت الفلسفة من جميع جوانبها .

وأى علم يتوسع فى دراسة الفلسفة. لابد أن يكون مفيدًا للمجتمع الإنسانى .

وقد بدا لنا: أن كتاب ((الإعلام بمناقب الإسلام)) كتاب مفيد خاصة فى هذا العصر .

فقد اشتدت الحاجة إلى معرفة الأديان ،وفهم الإسلام، فهما فلسفيا يهدى إلى المعالم المضيئة ، ويرشد إلى السلام والأمن .

وكتاب: ((الإعلام بمناقب الإسلام)) توجد مخطوطته بمكتبة راغب باشا ضمن مجموعة تحت رقم ١٤٦٣ .

أسأل الله أن ينفع به

أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح　　　　المستشار/ توفيق على وهبه

النص المحقق



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله بكل ما حمده به أكرم خلائقه لديه، وأرضى حامديه عنده ، حمدا يكون وصلة إلى عفوه ، وسببا إلى رضوانه ، وذريعة إلى مغفرته ، وعونا على تأدية وظائفه ؛ حمدا لا منتهى لحده ، ولا حساب لعده ، ولا مبلغ لغايته ، ولا انقطاع لأمده ، حمداً تزاحم به ملائكته المقربين ، وتصادم به أنبياءه المرسلين ، في دار المقامة التي لا نزول ، ومحل الكرامة التي لا تحول .

ونسأله أن يصلى على إمام الرحمة ، ومفتاح البركة ، الذى نصب لأمره نفسه ، وعرض للمكروه فيه بدنه ، وأقصى الأدنين على عنودهم عنه ، وقرب الأقصين على استجابتهم له وأدأب نفسه بتبليغ رسالته ، وأتعبها في الدعاء إلى ملته ، حتى استتب له ما حاول فى أعدائه ، واستتم له ما دبر فى أوليائه ، فظهر أمره ، وعلت كلمته ، محمد عبده ورسوله .

وبعد :

فإنى لما علمت أن مرتبة الحكمة ـ وإن كانت فى نهاية الرفعة ، ومحلها من بين المعارف على غاية المعلوة ـ فإن طبقات العوام قد أعرضوا عنها ، وكرهوا الإصغاء إليها ، لا لأنها مَنعت عنهم ، بل لأن عقولهم بالإضافة إليها نزلت منزلة الأعين الرمدة بالإضافة إلى نور الشمس .

ووجدت الشيخ الفاضل الرئيس أبا نصر ـ بلغه الله من المحامد غاية الأمنية ـ مرزوقا من الله تعالى بصدق المحبة لها ، وفرط الميل إليها ، وصادفته من رجحان عقله ، وكمال تيقظه ليس يرضى لنفسه فى شيء من الأصول الاعتقادية

بدرجة المقلدين ، لكن يجهد فى أن يفوز منها برتبة المستبصرين

وعلمت أنه لا تحفة عنده أجل موقعا ، وأشرف محلا من الإيضاح لفضيلة الملة الحنيفية على سائر الملل ، ثم كانت نِعَم الله بسببه عندي متظاهرة وأياديه لدى متتابعة، تحريت شكره بتصنيف كتاب باسمه

مشتمل على جمل ما اختص به الإسلام من المناقب العلية ، ليعلم الناظر فيه أنه بالحرى أن يكون ناسخا للأديان كلها وأن يكون ثباته أبديا لا يرد النسخ عليه وسميته : **الإعلام بمناقب الإسلام.**

واعتمدت صنع الله ـ تعالى جده ـ فى تيسيره،أن يحفظنى من الزيغ فيه ،ويويدنى لإتمام الغرض منه،وأن ينفع عباده به،ولا يحرمنى جزيل الثواب عليه.إنه ولى الخيرات،والمجدد للبركات،ولاقوة الا بالله

مفتتح ما يحتاج إلى معرفته

إن كان العقل المختص بالجوهر الإنسيّ هو أن يعرف الحق ، ويعمل بما يوافق الحق ـ فمن الواجب أن يكون أكمل الناس أغزرهم عرفانًا للحق ، وأقدرهم على العمل بما يوافق الحق وأذل للناس أنزرهم إلى معرفة بالحق ، وأعجزهم عن العمل بما يوافق الحق ، وأن يكون أنفع الأشياء للإنسان فى الإبقاء على نفسه أن يعلم أنه متى ارتكب المساوئ لم يمكنه سد أفواه الناس عن ذكرها ، فلا يلتمس إسكاتهم بالغلظة على من يعيبه بها ، بل يلتمسه بإصلاح أخلاقه.

وإذ عرف هذا فنقول :

إن فرقة من الفلاسفة ، وطائفة من الباطنية ، قد ادَّعوا أن المبرِّز فى العلوم

لن يلزمه شيء من وظائف العبودية غير الهداية للخليقة ،

وأن العاقل منا ليس يلزمه اقتباس العلم ليتوصل به إلى الأعمال الصالحة بل يلزمه ذلك ليسلم به عن وحشة الجهالة ، فإنها في ذاتها قبيحة مظلمة ، كما أن ضدها في نفسه حسن ملذّا

قالوا: وليس يشك أن الملابس لصناعة من الصناعات لن يتحمل المشقة في تكليفها إلا بمقدار ما يكسبه البراعة فيها ، حتى إذا ظهر حذقه ، واستحكمت مهارته لم يبق علمها من تعبها إلا الهداية والتكليف .

قالوا: فإذن مساواة المقدم في الحكمة لطبقات الجهال في التزام الكدّ لإقامة وظائف الأمر شيء ظاهر الشناعة ، ولو جاز توهم ذلك لما وجد الجهال منقادين للعلماء .

فهذا هو زبدة ما تعلقت به هذه الطائفة من الشبهة .

ونحن نقول: إن كل من آثر لنفسه هذه العقيدةفقد ارتكب خطأ فاحشا ، فإن العلم مبدأ للعمل ، والعمل تمام العلم ، ولا يرغب في العلوم الفاضلة إلا لأجل الأعمال الصالحة .

ولو جعل الله تعالى الجبلة البشرية مقصورة على تحصيل العلم دون تقويم العمل. لكانت القوة العملية إما فضلا زائدا ، وإما تبعا عارضا ،

ولو أنها كانت كذلك لما كان عدمها ليخل في عمارة البلاد ، وسياسة العباد .

كلا ! إن توهم هذا مما يؤدي إلى تقويض الأعمال الصالحة بأسرها إلى ذوي الجهل والغباوة ! ولو جعل الأمر كذلك لوجدت الطبيعة الإنسية عند إقامتها الأعمال الصالحة مستغنية عن العلوم الحقيقية .

وهذا باب قد استقصينا القول فيه فى كتاب ((الإتمام لفضائل الأنام)).

وإذا تقرر هذا فمن الواجب أن نصرف القول إلى ذكر محاسن الأعمال الفنية إنها بالقسمة الأولى توجد مقسمة إلى **أقسام ثلاثة :**

أحدها: استصلاح ما يتعلق صلاحه بضرب من المعونة البشرية .

والثاني: استبقاء ما يفتخر فى بقائه إلى ضرب من القوة البشرية.

والثالث: استعمال [ما تتحقق] عائدة منافعه بضرب من التدابير البشرية. ثم كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة يتعلق بثلاثة أصناف من القنيات المتصلة برياسة الإنسان : [وهى القنيات النفسانية و القنيات الكذخدايية والقنيات الرّياسية] وكل من قصر عن القنيات النفسانية ، أعنى العائدة باستصلاحها واستبقائها واستعمالها ثم لا ينعكس، وبمثله كل من قصر عن القنيات الكذخدايية أعنى العائدة باستصلاحها واستبقائها واستعمالها ، فهو لا محالة قاصر عن القنيات الرياسية ثم لا ينعكس .

فنحن إذن جسرا ، بأن نصرف البيان إلى تحقيق القنيات المتصلة بكل واحد من هذه المعانى الثلاثة فنقول :

أما استصلاح النفسانية فمتعلق بعنايات ثلاث :

إحداها: العناية بقمع القوة الشهوانية.

والثانية: العناية برياضة القوة الغضبية.

والثالثة: العناية بجعل للقوة العاقلة رئيسا على القوتين : أعنى الشهوانية والغضبية ، بعناية واحدة : وهي التدرُّب فى عرض جميع ما تحرك له الغضب أو الشهوة على العقل ، ليكون هو المدير لوصولها إلى تمام البغية .

وأما استصلاح الكذخداييّة فمتعلق بمزاوجات أربعة :

إحداها: مُزاوجة الرجل مع امرأته .

والثانية: مزاوجة الوالد مع أولاده .

والثالثة: مُزاوجة المالك مع أملاكه.

والرابعة : مُزاوجة الملك مع رعيته .

وأما استبقائها فمتعلق بمحافظة هذه المزاوجات الأربعة لنفسه الفريدة ، بحسب ما توجبه مروءة مثله فى الجاه والمرتبة .

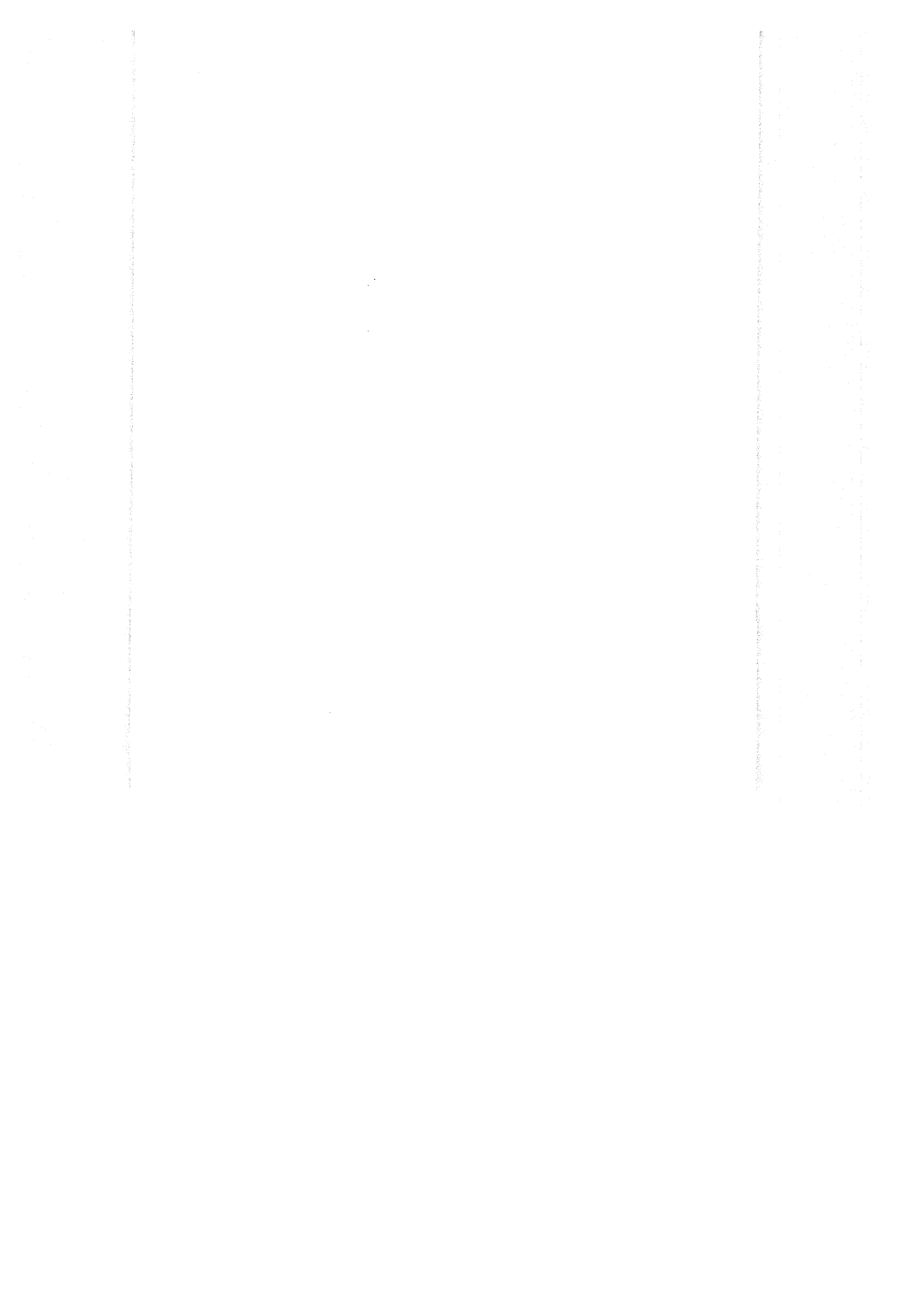
وأما استصلاح الرياسية واستعمالها فقد أكثر الحكماء من تصنيفاتهم فيها ، واشتهرت كتبهم فى أقسامها ، ومدارها كلها معلق بالانتصاب لحفظ طبقات الخليقة وصناعتهم على خصائص مراتبها ، بحسب نسبة بعضها إلى بعض ، على ما يوجه الدين الصحيح والرأى الصريح

وإذا عرف هذا ، ثم وجدت الملة الحنيفية مرتبة على الأديان كلها فى تأكيد الامر بتحصيل هذه القنيات ، والهداية إلى التمسك بشروط هذه العنايات ، على ما يرد بيانه على الأثر .

فبالحرى أن يشهد لها بالمنقبة العلية ، والدرجة الرفيعة .

وإذ قد أتينا على ذكر الجمل مما يتصل بمحاسن الأعمال، وأحببنا أن نجعل هذا الفقه من تبيانها مقدمة لما هو غرضنا من التصنيف

فمن الواجب أن نقتصر عليه ، ونصرف السعى إلى مقصودنا من الأبواب، وأن نبدأ بذكر مائية العلم وشرفه ومرافق أنواعه .



الفصل الأول

القول في مائية العلم ومرافق أنواعه

الفصل الأول

١ـ القول فى مائية العلم ومرافق أنواعه :

الإيمان اعتقاد صادق يقيني ، ومحله من النفس هو القوة العاقلة ، والكفر اعتقاد كاذب غير يقيني ، ومحله من النفس هو القوة المتخيلة ،

وقد تصلح القوة المتخيلة للاعتقاد الصالح ولن تصلح القوة العاقلة للاعتقاد الكاذب .

ومن الواجب على الإنسان أن يعرض جميع ما يسنح لقوته المتخيلة من الأبواب الاعتقادية على قوته العاقلة ، ليأمن به آفات الكذب ، غير أنه ربما كره عرضه عليها تفاديا من أن يزن بالنقص ، أو يؤنب بالكذب .

وكما أن العمل الأحكم هو ما يكون الإقدام عليه بعد التقدير ، وبمثله القول الأحكم هو ما يكون إطلاقه بعد الروية ؛ كذا العلم الأحكم هو ما يكون الاعتقاد له بعد التهذيب .

وإذ عرف هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصودنا من القول فنقول :

أما العلم فهو الإحاطة بالشيء على ما هو عليه من غير خطأ ولا ذلل وهو ينقسم إلى : الملّيّ ، والحكميّ ،

وأرباب العلوم الملّيّة هم المصطفون من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأرباب العلوم الحكمية هم المرتضون من الحكماء وكل نبى حكيم ، وليس كل حكيم نبيا .

فأما العلوم الملية فتفتن إلى صناعات ثلاث :

إحداها حسية: وهى صناعة المحدّثين.

والثانية عقلية: وهى صناعة المتكلمين.

والثالثة مشتركة بين الحس والعقل: وهى صناعة الفقهاء .

ثم صناعة اللغة تنزل من الصناعات الثلاث منزلة الآلة المعينة عليها .

وأما العلوم الحكمية فهى تفتن أيضا إلى صناعات ثلاث :

إحداها حسية : وهى صناعة الطبيعيين .

والثانية عقلية: وهى صناعة الإلهيين .

والثالثة مشتركة بين الحس والعقل: وهى صناعة الرياضيين

ثم صناعة المنطق تنزل من الصناعات الثلاث منزلة الآلة المعينة عليها ثم إن العامة ربما أطلقت لفظة العلم على حرفة من الحرف ؛ أية حرفة كانت

وأهل التجربة ربما أطلقوها على المعانى الامتحانية: نحو الزَّجر، والعيافة، وعلم الكشف، والقيافة.

وقد يوجد من العلوم ما هو مذموم عند الحكماء ، ولا يجوز تعلمه عند الدهماء وذلك ليقينهم بأن الضرر فى استعمالها أعم من النفع: بنحو السِّحر، والوهم ، والعزائم ، والكيمياء .

وإذ تحقق هذا فمن الواجب أن نترقَّي فى البيان قليلا فنقول :

إن من أعظم مواهب الله تعالى لعباده أن خلقهم من أنفسهم محبين للعلم. ثم لما كانت الجبلة البشرية فى طباعها بحيث لا يقوى الإنسان على ضبط جميع

أنه جعل بين طباع البشر وبين أصناف العلم علامة خفية ، ومناسبة ذاتية أعني أن الواحد منهم ينجذب بهمته إلى قسم من أقسامها :

إما باختيار نفسه ، أو باختيار من يلي التقدير عليه ؛ فيتأكد إلفهُ له ؛ ويقوى شغفه به ، فيخصه من قلبه بشدة المحبة ، ويفضله على غيره وإن كان مفضولا حتى قيل: إن المرء لما جهله عدوه .

وإذ عرف هذا ، ثم لم تشك أن الوقوف على ما يحصل لنا من النفع من كل فن منها يصير عونا قويا على حسن الاختيار فيها .

فنحن إذن جُدَراءُ بأن نصرف السعي إليه فنقول :

إن العلوم الحكمية قد طعن عليها قوم من الحشوية ، وزعموا أنها مضادة للعلوم الدينية ، وإن من مال إليها ، وعنى بدراستها فقد خسر الدنيا والآخرة قالوا: وليست هى إلا ألفاظا هائلة : وألقابا مزخرفة ، زينت بمعان ملفقة ، لينخدع بها الجاهل الغِرّ ، ويولع بها المتطرف الغمر.

وليس الأمر كذلك:

بل توجد أصولها وفروعها عقائد موافقة للعقل الصريح ، ومؤيدة بالبرهان الصحيح ، حسب ما توجد العلوم المليَّة ، ومعلوم أن الذى حققه البرهان وأوجبه العقل ، لن يكون بينه وبين ما يوجبه الدين الحق مدافعة ولا عناد .

على أن من ضبط العلوم الحكمية فقد استسعد من يقينه بمرافق ثلاثة :

أحدها: الأنس باستكمال الفضيلة الإنسانية ، باستيلائه على حقائق الموجودات ، والتمكن من التصرف عليها .

والثاني : الخلوص إلى مواقع الحكمة فيما أنشأه الصانع ـ جلَّ جلاله ـ من

أصناف الخليقة ، والتحقق لعللها ومعلولاتها ، وما تتصل به من النظام العجيب والوصف الأنيق .

والثالث : الارتياض فى مطلب البرهان على الدعاوى المسموعة ، والسلامة من وصمة التقليد للمذاهب الواهية .

وإذ عرف هذا ، ثم وصفنا أن العلوم الحكمية كلها تفتن إلى الصناعات الثلاثة :

وهي صناعة الرياضيين ، وصناعة الطبيعيين ، وصناعة الإلهيين ، وأن صناعة المنطق نازلة منزلة الآلة.

فمن الواجب أن نذكر ما يختصُّ بكل واحدة من هذه الصناعات الأربعة من المرفق والجدوى ، بإجمال من القول.

ثم نصرف السَّعي بعده إلى أصناف العلوم الملية ، فنقول :

أما صناعة الرياضيين فمفتنة إلى شعب خمسة وهي :

العدد ، والهندسة ، والتنجيم ، والتأليف ، والحيل .

فأما العدد فإن الإرتياض به، والمهارة فيه ، تُنِيف بالإنسان على أبواب ينغمس لها الفكر في اللذات العقلية ، فإن في أقسامه المفردة ، وأقسامه المضافة، ما لو نظر العاقل إلى خواصها لم يشبع من الاستمتاع بها ، وأيقن أنه من جلالة القدر ، وعظم الخطر ،

بحيث لا ينقضي منه العجب ، مع أنه في نفسه بمعزل من الاختلاف وعوارض الشكوك ، وهو المتحكم إليه في المعاملات .

وقد قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[2] .

وأما الهندسة فهي تتلو العدد في جلالة القدر ، وعظم الخطر ، بل هي أقرب إلى الإدراك لوقوعها تحت الأمثلة الحسية ، وأوسع منه نفاذا : إذ لولاها لما قدر الحساب على استخراج الجذور الصُّم ، ولما قدر المُسَّاحُ على معرفة أشكال العقارات ، ولما وصلت العقول إلى التحقيق لمبلغ الأبحر في أطوالها وعروضها ، ومبلغ الجبال في أعمدتها وارتفاعها .

هذا ـ أيدك الله ـ مع ما ينتفع به الحذّاق من البنائين، والنَّجارين، والنَّقاشين، والصَّواغين، وما يتوصل بها إلى اتخاذ الآلات الرَّصدية : كالكرى والاصطرلابات ، وذوات الحلق ، والرخامات .

وأما التَّنجيم فهو مالا ينكر شرفه ، إذ هو باحث عن هيئة العالم العلوي في كميته وكيفيته ، وحركات كل جرم من أجرامه ، واستخراج علل كسوفاته ، وما يلحق بالخُنَّس الجواري من الحالات المختلفة : كالرجوع والاستقامة ، والسير والإقامة ،

وما يعرض للأنجم الثوابت من الظهور والاختفاء ، والتشريق والتغريب .

وليس يشكُّ أن العاقل متى أحاط علمه بما اشتملت السموات عليه فقد تنبَّه من أبواب السعادة على قسط عظيم ؛ ولهذا ذمَّ الله تعالى أقواما رضوا

(١) سورة مريم الآية رقم ٩٤.

(٢) سورة الجنة الآية رقم ٢٨.

لأنفسهم بشكل هذه المكرمة ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [1]، ومدح أقوامًا سعدوا بمثل هذه المنقبة فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [2].

وأما التأليف فهو ما لا ينكر شرفه ، فإن إقامة البراهين على ما يأتلف ومالا يأتلف من القوى والمقادير في العالم السماوي، والعالم الأرضي، بل وفي العالم الرُّوحاني ، والعالم الجسماني ـ معلق به .

ولولا قوة هذه الصناعة لما وصل المنجمون إلى تحقيق ما ادَّعوه من أحوال الكواكب في اتصالاتها ، وامتزاج أشيعتها ،

ولما وصل العروضيون إلى إقامة العلل في أوزان الشعر ، وانحصار أجناسها الخمسة عشر في الدوائر الخمسة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » وأما الحيل فهي فن مشترك بين الرياضي والطبيعي ، وبها يتوصل إلى استنباط المياه المستكنَّة في بطون الأرض ، وإساحتها على وجهها: وهي إما بالدَّواليب ، وإما بالفوَّارات،

وبها يتقوى على حمل الأشياء الثقيلة بمعونة القوى الضعيفة ، وبها يُستعان على اتخاذ القناطر على الأدوية القعرة ، وعقد الجسور العجيبة في الأنهار العميقة ، وغيرهما مما يطول شرحه .

---

(١) سورة الروم الآية (٨).

(٢) سورة آل عمران الآية رقم (٩١).

فهذه هي مجامع ما يرتفق به من صناعة الرياضيين. وقد علم أنه ليس بينها وبين العلوم الملية عِناد ولا مضادّة .

وأما صناعة الطبيعيين فهي بالجسمانيات تحت المشاعر ، وليس يُشكُّ أن جواهر العالم كلها مفتنة إلى قسمين :

أحدهما : المبدعات بتمام قدرته الإلهية: نحو الأفلاك ، والكواكب ، والأسطقسات الأربعة .

والثاني: المكونات عنها بالتسخير الإلهي ، وهي المفتنة إلى أقسام ثلاثة :

أحدهما : الحادث في الجو : كالثلج ، والأمطار ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، والشهب .

والثاني: الحادث في المعادن: كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس ، والزئبق ، والرصاص .

والثالث: الحادث بين الطرفين: وهي منقسمة إلى النبات والحيوان .

وقد يتولد من هذا العلم صناعات شريفة: كالطب ، والطبيخ ، والأصباغ ، والأطلية ، ثم هو الذي شهد له بنفاسة الفائدة ، وجزالة العائدة ،

وقد روى في الأخبار عن الإمام الأجل علي بن أبي طالب أنه قال : « العلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان » .

بل قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [1]فهذه مجامع ما يرتفق به من صناعة الطبيعيين .

وقد علم أنه ليس بينها وبين العلوم الملية عناد ولا مضادة .

وأما صناعة الإلهيين فهي مرتفعة من أن يدرك شيء من أغراضها إلا بقوة العقل المجرد وهذه القوى تسمى لبا ، ولب كل شيء هو خلاصته .

وهي صناعة مجردة للبحث عن الأسباب الأولية لحدوث الكائنات العالمية ، ثم التَّحقيق للأول الفرد الحق ، الذي هو النهاية في كل ما يقصد إليه بالإحلال ، على السبيل المُبَرأ من المرية.

وليس يشك أن الفوز بهذه الغبطة هو المنيل للسعادة الأبدية ، وقد يصعب الارتقاء إليه إلا بعد أن نجعل المعلومات الأُخر ذريعة لنا إلى تحصيله ، كما ذكرنا في كتابنا الملقب ب « العناية والدِّراية » .

ولهذا لم يكن الأوائل يسمون أحدًا من الناس حكيمًا إلا إذا فاز بهذه المعرفة وإنَّ صناعة هذه ثمرتها أن يكون بينها وبين العلوم المِلِّية عناد أو مضادة .

وأما صناعة المنطق: فإن طائفة من المتكلمين تقبَّلوا آثار الحشويَّة في الزراية عليها، واحتجوا في ذلك بحجتين:

إحداهما قولهم : إنَّا معشر المبرِّزين في صناعة الكلام نظرنا في الكتب المنطقية فلم نحصل منها إلا على ألفاظ متعلقة ، وألقاب مستغربة :

(١) سورة البقرة الآية (١٦٤).

فلو أن أرباب هذه الكتب سعدوا بما يوافق الحق لوجب أن يوجدوا حراصًا على إيضاحه ، وأوجدوا منه تصنيفاً واحد يغنينا النظر فيه ، عن فاتح يفتح لنا معانيه .

وهذه ــ أيدك الله ــ حجة داحضة :

فإن قصور أفهام المتكلمين عن معاني الكتب المنطقية غير دالٍّ على فسادها.

على أن المعترف بقصور فهمه عن جميع ما تضمنته صناعة المنطق من معانيها ، قد صار شاهدًا بأن حكمه عليها بأنها موافقة للحق أو مخالفة له يكون لا محالة مردودا ؛

وأن الواجب عليه أن يلتزم الرجوع إلى الذي عابه أو قرَّظه ، ليستفهم مضمونها ، ثم يحكم بالصواب أو الخطأ عليها .

والحجة الثانية هي قولهم: إن أرباب هذه الصناعة قد اتفقوا على أن الفائدة العظمى من اقتنائها هو المهارة في شروط الاستدلال بالشاهد على الغائب وأن منزلتها من العلوم النظرية كلها مُضاه لمنزلة صناعة العروض من أصناف الشعر ،

ولسنا أن نشك أحدنا متى أقتدر بذوقه على تقوال الشعر فقد صار علم العرض بالإضافة إليه مستغني عنه ،

فإذن يجب أن يكون المقتدر بفهمه على استعمال المقاييس ذا غُنيةٍ عن صناعة المنطق .

وما من عاقل يتحلي بصناعة المتكلمين إلا وقد اهتدى له بفهمه فبالحريِّ إذن أن يصير المنطق وبالاً عليه .

وهذه أيضًا حجة واهية .

فإن العاقل منا وإن اتفقت له الإصابة في مقاييسه فإن خصمه متى نازعه في صحتها وادعى عليه صحة قياس مخالف لقوانينه، لم يمكنه تحقيق ما نوزع فيه إلا إذا كان عنده هذا الميزان اليقيني الموثوق بعدالته.

وبمثله الحال فيمن نوزع في صحة بيت من الشّعر وادعى أنه مزاحف. أعني أنه لن يتواصل إلى تحقيق الصواب من قوله وقول خصمه إلا بقوة صناعة العروض.

وإذا تبيَّن لنا سقم الحجتين فمن الواجب أن نذكر الفائدة الأولية من هذه الصناعة فنقول:

إنها آلة عقلية تكمل بها النفس الناطقة التمييز بين الحق والباطل في الأبواب النظرية ، وبين الخير والشر في الأبواب العلمية .

ومحلها من الأنفس المستعملة لها قريب الشبه من محل عيار مُعدل توزن به المعلومات : فإنها هي المراعية للسؤال والجواب ، والمعارضة ، والمناقضة ، والمغالطة .

بل بها يقتدر على حلّ الشبهات ، وكشف التمويهات ، وغير ذلك من المعاني العائدة بتحقيق الدعاوى .

ثم يستفاد بها أيضًا من اللذة العقلية التي تصفو باستعمالها ، ومن الطمأنينة في المعارف ما تصير به النفس من ذاتها أحد الدعاة إلى اقتباس الحكمة ، لا لتجلب بها حمد الإخوان ، بل لتغتبط بإصابة الحق من جهتها وروح اليقين .

ثم وجدنا طائفة من النُسَّاك يعيبون الآداب ، فيزعمون أن المشغوف

بافتتانها لن يكون إلا أحد رجلين:

إما رجل همته المذح باللسن والفصاحة . أو رجل يتحلى بها عند الأشراف والأجلة ، تدرجًا برونقها إلى النفع والرتبة وكلاهما مخدوعان عن التمسك بالعبادة أو التطلب للحكمة .

وهذا أيضًا من هذه الطائفة خطأ عظيم:

فإنها صناعة لاحقة بالبيان الذي ينزل عند الأنفس اللَطيفة منزلة الزمام واللجام إذ المفوه المنطيق يصير به مقتدرًا على استجرارها من حال إلى حال .

على أن محل الألفاظ من المعاني أشبه شيء بمحل الأنفس من الأبدان ، وكما أن الأنفس الشريفة لن تظهر أفعالها الحميدة إلا في الأبدان المختصة بمزاج فاضل ، كذا المعاني الحقيقِّية لن يتهيأ تصويرها إلا بالألفاظ الشهية .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن من البيان لسحرا »[1] ؛ بل قال الله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[2].

فإذن ليس المراد من الاتساع في اللغة حسن التمكن من الفصاحة ، بل المراد منه هو الوصول إلى الكلام المنطبع : نحو الشعر ، والخطب ، والرسائل ، والأمثال .

فإن كل واحد من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على فوائد يُستعان بها على تشحيذ العقول ، من الحكم البليغة ، والتشبيهات العجيبة ، ولهذا ما صارت

(١) رواه البخاري وأحمد وابن دواد والترمذي ((الجامع الصغير)).

(٢) سورة الرحمن الآية (٤).

مخلدة في الكتب حتى قيل لفرط بقائها : إنها كلام حي .

على أن من تأمل ثمرتها عند المقامات الجامعة لإصلاح ذات البين ، وقوة تأثيرها في دفع التعادي والتنافر ، واستمالة قلوب الملوك والأجلّة ، وتزيين المشاهدة لما يؤثر عنهم من الأفعال الشريفة ، والأقوال الحسنة.

أيقن أن المقدم على تزيينها مُتجاسرٌ على تحقير ما هو خطير الشأن ؛ فإن حفظها وروايتها محرك للهمم الرفيعة إلى طلب العلوة، وباعث لمن ارتاح لسماعها أن يجعل لنفسه منها سُهمة تحسن بها الأحدوثة .

وإذ قد أتينا من ذكر المرافق المتجلية من العلوم الحكيمة والعلوم الإلّهية على مقدار الكفاية ،

ثم كان القصد الأول من التصنيف منهجًا إلى العلوم الملّة التي هي اللائقة بغرضنا من الكتاب ،

وإنما أحوجنا إلى بسط القول في هذه الأبواب للتوصل بها إلى الإنابة عن رجعان مرافق المعالم الدينية عليها ــ فمن الواجب أن نصرف السعي إليها .

الفصل الثاني

القول في الإنابة عن شرف العلوم الملية

الفصل الثاني

القول في الإنابة عن شرف العلوم الملّية

استفادة العلم عمارة للقلب ؟

ومجالسة العلماء والحكماء تجلية للأبصار ؟

وبدوُّ حال العقلاء قطيعة أصناف الجهلاء ؟

وأعون الأشياء على تذكية العقل الخضوع للتعلم .

وإذْ عرف هذا فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من القول فنقول:

إن العلوم في ذواتها كثيرة ، وهي مع كثرتها متفاضلة.

فإن علم العروض وعلم النحو وإن كانا فاضلين فإنهما لن ينالا فضيلة الفقه الذي به يتوصل إلى إظهار العبودية، ولا فضيلة الكلام الذي هو المجاهدة عن الدين باللسان.

على أن خاصية التفاضل ليست بمقصورة على العلوم؛ بل هي عامَّة للأشياء:

وإلا فمن ذا يشك أن العرش والكرسيَّ أفضل من الجواهر السفلية، وأن الشمس والقمر أفضل من المصابيح والشهب ، وأن البازي أفضل من الدُّود وأبهج ، وأن العنب والتَّمر أفضل من المشمش والزعرور ؟!

وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم

﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ (1).

ثم أخبر عن التفاضل الموجود في الناس فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ (2) ثم أخبر عن تفاضل الأنبياء فقال: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (3).

وكذا لبعض الأمكنة والأزمنة فضيلة، إلا أنها وضعية محتملة للنَّسخ، على أن الفاضل والمفضول في هذه الأشياء ليس يمنعك من مرافق جمَّة لو توهم انقطاعها عن العالم لظهر الخلل في نظامه.

غير أن ما كان غرضه أشرف، أو قوّته أنفذ كان بأن يحكم له بالفضل أجدر: ومثاله أن غرض السمع والبصر أشرف من غرضي الظُّهر والشعر، وقوة الدماغ والقلب أنفذ في البدن كله من قوة المعدة أو الغرلة.

فإذن كل واحدة من أبواب العلوم ــ وإن قل خطره ــ فإنه في نفسه جليل الشأن، رفيع المكان، وما الذل والنقيصة، إلاَّ في الجهل والغباوة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ (4) وقال الإمام الفاضل: «قيمة كل امرئ ما يحسن».

وإذا تقرَّر هذا فمن الواجب أن تصرف القول إلى ذكر فضيلة العلوم الملِّيَّة

(1) سورة الإسراء الآية (70).

(2) سورة الأنعام الآية (165).

(3) سورة البقرة الآية رقم (253).

(4) سورة المجادلة الآية رقم (11).

وأن نحكي أولاً مذهب من يزدريها، ويغض من مقدرها ، ونحل ما يورده من الشبهة واللبس؟

فنقول: زعم بعض المتطرِّفة الذين حملهم المجون والخلاعة على الاشتغال لوظائف العبادات، والإنكار لعزائم الأمر ، أنه ليس تحت شيء من الأديان علم يقتضي العقل إيثاره والاعتداد به :

فإنها في الحقيقة مثل شرعية ، وأوضاع اصطلاحية ، تأخذ كل ملة منها حظًا تنتفع به في إقامة معاشها ، ودفع أسباب العيش عن أنفسها . ولو كان لها حقيقة لاستغنى فيها عن التوقيف ولنيط أمرها بالعقل ، ولو فعل ذلك لما صاروا فيها فرقًا شتى ، وأحزابًا متفرقين .

قالوا: ومعلوم أن امتهان النفس فيما لا يوجبه العقل شغل لا يفيد نائلا ، ولا يجدي طائلا . فإذن ليس لمن شاور عقله ، واستملى منه ، أفضل من أن يعمد إلى ما توجد الفرق كلها متفقة على اختياره : كالعدل ، وصدق القول ، والوفاء بالعهد ، والأداء للأمانة ، ونصرة الضعيف ، وإغاثة اللهيف - فيجعلها سيرة لنفسه ، ويترك ما عداها مما تنازعت فيه الأمم ، وتجاذبت في شئونه الهمم .

فهذا هو معظم ما تعلقت به هذه الفرقة من الدعوى والحُجَّة .

ولن يميل إليها إلا أحد رجلين :

إما رجل ضعفت مُنته عن إعطاء البحث حقَّه ؛ فيرجع في اعتقاده إلى حيرة وارتياب ،

أو رجل أطلق نفسه لما تشتهيه من اللذات العاجلة ، وليس يهتم بما يؤول

إليه الأمر في العاقبة .

وهذان الرجلان لن تعرف لهما مملكة يختصانها بل كل من أهل الممالك قد اعتقد لهما بغضًا ، ونصب لها حربًا ، وحكم بأنهما الأرذلان مذهبا ، والأحقران عملا ،

وأنه لا شيء أوحش في العقل من إثبات صانع حق لا يوجد له أمر ولا نهي ، ولا امتحان ولا تكليف ، ولا وعد ولا وعيد ، ولا ترغيب ولا ترهيب .

وأنه مع حكمته التامة ، وقدرته البالغة أهمل ذوي الألباب من عباده سُدى ، ليبقى أحدهم في هذه الدنيا مدة سنين يسيره ، مع الغموم والهموم ، والتعب والكدّ ، ثم يفنى فناء أبديًا .

ونحن جدراء بأن نأخذ في امتحان ما احتجّت به المتطرّفة فنقول :

أما قولهم : إن العلوم الدينيّة كلها مثل شرعية ، وأوضاع اصطلاحية- فمقدمة كاذبة. فإن الأركان الأول للأديان كلها مفتّنة إلى أقسام أربعة وهي : الاعتقادات ، والعبادات ، والمعاملات ، والمزاجر .

وإن مائياتها أيضًا عقلية ، ولن يجوز ارتفاعها ما دام العالم السُّفلي معمورًا بالجبلّة الإنسيّة ،

وأعني بهذا أن العقل الصريح لن يطلق لذوي الألباب ترك تعبد المولى . ولن يطلق لهم ترك معاملة بعضهم لبعض بالحسنى ، ولن يطلق ترك زجر الأشرار عن السوء ،

وما ليس يطلق العقل تركه وإهماله ، فهو يوجب إثباته وربطه . غير أن

عقولنا الجزئية تقصر عن معرفة كيفياتها وكمّياتها ، فيحوجنا الضعف إلى من له الخلق والأمر ،

وخصوصًا إذا كانت المصالح في هيئاتها ومقاديرها تتغير بحسب تغير .

وأما قولهم : ليس لمن تشاور عقله أفضل من أن يعمد إلى ما توجد الفرق كلها متفقة عليه فمقدمة مُمَّوهة : فإنهم مع اختلافهم في فروع الشرائع يتفقون على أن الجاحد لأبواب العبادات كلها ، والتارك لصنوف المعاملات ، والمنكر لوجود المزاجر لن يصلح له دين ولا دنيا ، ولا تحصل له آخرة ولا أولى .

وإذا كان هذا معتقدهم، وعليه مدار أمرهم ؛ فقد صار المعرض عن الشرائع الدينية لفرط شغفه باتباع ما أوجبه العقل متبعًا لما أجمعت الأمم كلها على خلافه .

على أن العقل لن يوجب ترك جميع ما اختلف فيه العقلاء ، بل يوجب صرف العنان إلى ما هو الأرشد من جملته .

وإذ قد ظهر لنا جواب ما جنح إليه المتطرِّفة فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من القول .

وقبل أن نخوض فيه يجب أن تقدم مقدمة تكون توطئه لما نروم إيضاحه فنقول: إن الأشياء بالإضافة إلى العقل تفتن إلى أقسام ثلاثة :

أحدهما : الموجب بالعقل .

والثاني : المجوز في العقل .

والثالث : المدفوع عن العقل .

وكل ما أوجبه العقل فملتزم مقبول ، وكل ما دفعه العقل فمطرح مرذول ، وكل ما جوَّزه العقل فحكمة موقوف إلى أن يوجد له في المعقولات ما يستدعيه إلى نفسه : إما إيجابًا وإما إسقاطًا .

ومثاله: أن صيانة الولد لوالده عن التهلكة واجب في العقل ، وإلجاؤه إلى التهلكة مدفوع عن العقل ، والقيام بين يديه للإكرام جائز في العقل .

ثم إن أمره الوالد بالقيام بين يديه ، أو بالتنحي من بين يديه ، يصير واجبًا عليه . فقد صار الجائز في العقل ملحقًا بأحد طرفيه ، لا بذاته ، لكن بوساطة الأمر به .

فقد ظهر أن العبيد كلهم يتصرَّفون في خدمة مولاهم :

إما بالقسم العقلي : وهو راجع إلى مكارم الأخلاق ، وبه يكتسب الحمد .

وإما بالقسم التقليدي : وهو راجع إلى وظائف الأمر ، وبه يُستحق الثواب؛ بل قد ظهر أنه لولا القسم التقليدي لما ظهر الخليع من المطيع ، وأن القسم العقليُ يتعاطى لا لإظهار الطاعة ، لكن لا كتساب الثناء والمحمدة .

بل قد ظهر أن العقل إنما يضطر في المعاني الجائزة إلى انتظار ورود الأمر به؛ لعجزه عن إدراك الحقائق كلها بذاته ، واحتياجه في الكثير منها إلى مواد من خارج .

بل قد ظهر أن من الواجب على كل إنسان أن يلتزم التعليم لمن هو دونه ، والتعلم ممن هو فوقه ، حتى تنتهي بهم إلى الأوحد الأخص الذي يصير بالإضافة إليهم مفزعًا في تعرف ما قصرت طباعهم عنه فتتسع بمكانة المعرفة ، وتتم برجحانه المصلحة .

وليس يشك أن العلة لا تزاح به على التتمة إلا إذا صودفتِ حالـه مقرونـة بعلامات تحقق عندهم جلالة محله عند من له الخلق والأمر - تبـارك اسمـه - ليتقوى بصدق لهجته فيما نقل إليهم من مولاهم .

وهذه مقدمة لن يجوز استعمالها إلا من عرف الصانع وأيقـن أنـه عبـد مـن عباده، مستمتع بنعمه ، وأن الواجب عليه الاعتكاف على طاعته والمثابرة على الشكر لمنته ، والمبالغة في إظهار العبودية له .

ثم رجع بنا الكلام إلى ما وعدنا ذكره من فضائل العلوم المِلِّية فنقول :

إنها أشرف العلوم كلها منزلة ، وأعلاها رتبـة ، وأرفعهـا درجـة ، ولـذلك وجوه ثلاثة :

أحدها : أن ثمرة العلوم كلها هي الوصول إلى الخيرات ، ولا خـيرة للعبـد أفضل من إفادة الزلفى إلى مولاه ، ولن يسعد بنيلـها إلا بـإخلاص العبوديـة ، ونقض الشغل على تطلب مرضاته .

وليس يشك أن الإنسان لن يصير مهتديا إلى إقامة لوازمه مـن حقـوق مـن له الخلق والأمر - عزَّ اسمه - إلا بعلم دينه الحق ، دون ما سـواه مـن العلـوم الأخرى ، فهو إذن يختص من بينها بأن يفيده خِيرة أبدية وغبطة حينية .

وتلك هي ثمرة ليس وراءها ثمرة .

والثاني : أنه لن يوضع دين من الأديان للنفع الخاصيِّ ، والفائدة الجزئيـة ؛ بل يُقصد بها أبدًا المـصلحة الكليـة . والحاجـة إلى مـا يعـم الخلائـق ، جـدواه تكون أمس منها إلى المقصور نفعه على شخص واحد .

ولهذا ما عيب على معاوية بتجهيزه الأصنام في السفن إلى بـلاد الهنـد ، وإن

تعلّق به توفر بيت المال، حتى قيل : لا ندري أيُّ الرجلين معاوية : أرجل زين له سوء عمله فرآه جسنًا ؟ أم رجل أيس من الآخرة فأراد أن يتمتع بالدنيا ؟ .

فإذن العلوم الأخرى وإن كانت في أنفسها عِلقًا نفسيًا فمن قبل أنها بإزاء فضائل الأفراد من البرية.

حتى لو أن واحدًا من ذوي الألباب أعرض عن اقتنائها لم يلحقه العتب؛ بل يجب أن تكون كلها جللاً عند علم الدين ، متضائلاً لديه .

والثالث : أن العلم الدينيّ قد يصير أساسًا تُبنى عليه سائر العلوم ؟ فإنه لن يقتبس إلا من المشكاة التي إليها تُعتزي الأوضاع الأولية لكل صناعة نظرية:

أعني الوحي الإلهي الذي لا يعرض الشك عليه، ولا يجوز السهو والغلط فيه. فأما العلوم الأخرى فليس واحد منها بحيث يقوى على أن يؤسس عليه علم الدين، أو يقضى على شيء من أبوابه.

فإذن العلم الديني لا محالة ينزل في ذاته منزلة أصول الصناعات النظرية ومبادئها في الصدق والقوة.

وأعني بهذا أن الأطباء مع نسبتهم الصناعة إلى إمامهم المعروف بإسقليبيوس قد ادّعوا أنه ممن عرج بروحه إلى السماء فاطلع على أحوالها،

والمنجّمة بعد نسبتهم الصناعة إلى إمامهم المعروف بهرمس قد ادّعوا أنه ممن عرج بروحه إلى السماء فاطلع على أجرامها ، وحكماء الهند مع تأكد بصيرتهم في صنوف المعارف ليسوا يتحاشون عن نسبتها إلى الوحي النبويّ أو الإلهام الإلهيّ .

فبحسب المعرفة بهذه المعاني الثلاثة يتحقق العاقل مزية العلوم المليّة، ويحرص على استيفاء الحظوة منها.

الفصل الثالث

القول في فضائل العلوم الملية



الفصل الثالث

القول في فضائل العلوم المليَّة

لن يسلك سبيل الطعن على أهل العلم إلا من شكل التعظيم من الناس ، وحاول إماتة الرغبات فيه تسخيطًا على ما يراه من محلهم في قلوب العباد .

ومتى أحب العالم أن تنظر العيون إليه بالإجلال فليقرن بعلمه القناعة والزهد ، ومهما فعل ذلك فقد صار مصباحًا يقتدى به في ظلمات الشبهة .

ثم ليكن بما علمه ، عند من يعاشره ، كمن لا يُنسب إلى علمه في الانبساط إليهم، وترك الاستطالة عليهم ، فإن من هزَّه علمه إلى الإعجاب بنفسه فقد أورثه الكبر ، والخيلاء وعرَّضه للعداوة والمقت .

وأحسن الأدب للأفاضل ألا يفخروا بشيء مما فضّلوا به على الدهماء .

ثم لن يسلم على الناس أحد، فإن العائبين لم يزل كانوا آفة المحسنين.

وابن آدم إلى عيب أخيه أسرع من السبع إلى فريسته.

ولا أحد أخس مرتبة ممن يتّبع القبيح ليستخرجه من بين ظهراني الحسن.

* * *

وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من القول، وأن نقدم أولاً مقدمة فنقول:

إن ذوات الأشياء توجد مستحقة للفضيلة على ما هو من جنسها تارة بحسب الكمية وتارة بحسب الكيفية:

أما الكميَّة فمثل كثرة العدد ، أو كبر الجثة ؛ فإن ذلك مما يروعُ الأبصار والأسماع قبل الهجوم على حقائقها ؛

ولهذا ما يجل في نفوس السامعين ذكر إجماع الأمة ، وذكر السَّواد الأعظم ، فإنها مجبولة على إحماد المناظر العظيمة ؛ كالجبال الشواهق ، والأبنية الفاخرة والأشجار الباسقة ، والحيوانات العظام ، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [1].

وقال: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ [2].

وأما الكيفية فكما نجد من مقاومة الشخص الواحد من الذكور وعدد أشخاص من الإناث ، نحو الفرس مع حجوره ، والجمل مع نوقه ، والديك مع دجاجه ، والرجل مع النسوة .

وإذ كان هذا حكما متيقنًا ، ثم ذكرنا أن العلوم المليَّة كلها تفنن إلى صناعات أربعة:

وهي صناعة الفقه، وصناعة الحديث ، وصناعة الكلام ، وصناعة الأدب فمن الواجب أن نتعرَّف أحوالها في الفضيلة بحسب اعتبار كميتها وكيفيتها:

أما عن طريق الكمية فلأن كل علم كان أكثر فنونا ، وأوفر شعبًا ، كان أحق بأن يُقضى له بالفضيلة .

وأما من طريق الكيفية فلأن كل علم كان أعظم نفعا ، وأطيب جدوى ،

(١) سورة المنافقون الآية رقم (٤).

(٢) سورة الأعراف الآية (٦٩).

كان أولى بأن يُحكم له بالمزِّية .

ثم لا نشك أن علم الحديث جعل كالمادة للعلوم الدينية ، فله فضيلة الابتداء .

وأن علم الكلام جعل كالغاية لها ، فله بذلك فضيلة الكمال .

وأن علم الفقه جعل كالمتوسط بينهما ، فله بذلك فضيلة الاعتدال .

وأن علم اللغة كالآلة لها كلها ، فله بذلك فضيلة التسهيل والتيسير .

* * *

ثم رجع بنا الكلام إلى الغرض المقصود فنقول:

إن طائفة من المتكلمين اتفقت على تهجين صناعة الحديث ، ولقَّبوا أربابها بالحشو والطغام ، بل أخرجوهم من جملة العلماء ، واحتجُّوا بأن علم الخبر نظير لعلم المدرك بالبصر ،

وكما لا يجوز أن يسمى عالمًا برؤية الأبصار ، لا يجوز أن يسمى عالمًا بسماع الأخبار ، وإنما يستحق تسمية العلم ما كان تعلمه معلقا بحركة النفس العلامة ، وإجالة الفكر والرَّويَّة .

ونحن نقول: إن كل من ذهب هذا المذهب في علم الأخبار فقد دلَّ من نفسه على جهل عظيم فإن علم الحديث ليس بمقصور على إدراك الأصوات ، لكنه نظير الكتابة المشتملة على المعاني وإن كانت الحروف بصورها هي المدركة بالبصر .

وهو علم يتفنن في الأساليب ، ويتشعب في الأبواب ، بل ما من فن من

فنون العلوم إلا ويوجد فيه أخبار منقولة:

إما من الكتب المنزلة ، أو من الرسل والأئمة ، أو من الحكماء المتقدمين ، أو من الأسلاف الصالحين ، فهو إذن مادة لها كلها .

ولحاجة العقل الغريزي إلى المسموع الخبري أكدّ الله تعالى حجة العقل بالسمع . فقال: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [(١)]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [(٢)]فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها؟)).

على أن الدين مؤسس بنيانه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكما أن البشر صاروا محجوبين بما بلغهم من كتاب الله – تعالى جدُّه – كذا الحال في الأثر ، وخصوصا إذ قال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [(٣)].

وقد رأينا الخلفاء يغتبطون ببرده رسول الله ﷺ وقضيبه .

ورأينا بني إسرائيل يتبجحون بالتابوت المشتمل على بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ [(٤)].

فإذا كانت هذه الأشياء معتدا بها – مع ضعفها – فما الظن بما هو زبدة تراثه عليه الصلاة والسلام؟ .

وليس يشك أن أصحاب الحديث هم المعنيون بمعرفة التواريخ العائدة

(١) سورة يونس الآية رقم (٤٢).

(٢) سورة الحج الآية رقم (٤٦).

(٣) سورة النساء الآية رقم (٨٠).

(٤) سورة البقرة. الآية رقم (٢٤٨).

بالمنافع والمضارّ ، وهم العارفون لرجال السَّلف بأنسابهم وأماكنهم ، ومقادير أعمارهم ، ومن اختلف إليهم ، وأخذ العلم عنهم .

بل هم المتحققون لما يصح من الأحاديث الدينية وما يسقم ويقوي منها ويضعف .

بل هم المتجشمون للحل والترحال في أقاصي البلدان وأدانيها ، ليأخذوا عن الثقات سُنن رسول الله ﷺ .

بل هم المجتهدون أن يصيروا نُقاد الآثار ، وجهابذة الأخبار ، فيعرفوا الموقوف منها والمرفوع ، والمسند والمرسل ، والمتصل والمنقطع ، والنسيب والملصق ، والمشهور منها والمدلس ،

وأن يصونوا صناعتهم صيانة لورام أحد أن يفتعل حديثًا مزورًا ، أو يغيّر إسنادًا ، ينحرف مستنا ، أو يروِّج فيها ما روِّج في الأخبار الأدبية ، كالفتوح والسير والأسمار والوقائع – للحقة من جماعتهم أعنف النكير.

وإذا كان هذا سعيهم ، وعليه مدار أمرهم ، فمن الواجب أن نعتقد لهم فيما أكدوا من العناية أعظم الحق ، وأوفر الشكر ، وأتم الإحماد ، وأبلغ التقريظ .

فهذا هذا .

ثم إن قومًا من حملة الآثار أقدموا على ثلب المتكلمين ، وأولعوا بذمّ صناعة الكلام ، ونسبوا أربابها إلى البدعة والضلال ، واحتجوا بأنهم ليسوا يعرفون إلا بأصحاب الجدل ، الذي وضعه الله تعالى في موضع الذمّ: ﴿ وَإِن

جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾[2] .

بل قرن الجدال بالترفث والفسوق في الذّكر . ولهذا لم يوجد الصحابة خائضين فيه ، أو مائلين إليه . ومعلوم أنهم ما كانوا ليتركوه إلا لعلمهم بأنه أمر قد حُظر عليهم .

ونحن نقول: إن من ذهب في علم الكلام هذا المذهب فقد دلَّ من نفسه على جهل عظيم:

أما أولاً: فلأن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3] . والشيء المذموم لن يقع فيه ما هو أحسن.

وأما ثانيًا: فلأن عمر بن الخطاب لما جادل اليهود في شأن جبريل عليه السلام ما أفحمهم به، فرجع إلى رسول الله ﷺ ليخبره به – وجد في الحال محققا لما احتج به عليهم في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾[4] الآية؛ فازداد به عمر استحكاما في اعتقاده.

ثم أجوبة المسائل الشكية للإمام الأجل على بن أبي طالب رضي الله عنه نزلت من

---

(١) سورة الحج الآية رقم (٦٨).

(٢) سورة الأنفال الآية رقم (٦).

(٣) سورة النمل الآية رقم (٢٥).

(٤) سورة البقرة الآية رقم (٩٨) وتمام الآية "فإن الله عدو الكافرين".

الشهرة والقوة بحيث لا يليق بأحد من ذوي الألباب أن ينسب الصحابة إلى الإعراض عن صناعة الكلام .

وأما ثالثا: فلأن الدين ينقسم بين أشياء تحل محلّ الأصول، وهو ما يجب على المؤمن اعتقاده في توحيد الله تعالى وإثبات الرسل والمعاد ، وأشياء تحل محلّ الفروع وهو ما يلزم المسلم إقامته من الشرائع والأحكام .

وقد علم أن الأصل مقدم على الفرع ، إذ الفرع يفسد بفساده ، ولهذا ما عُدَّ الخطأ في أصول الدين كفرًا وأهل صناعة الكلام هم المحتسبون بتوطيد أركان الدين

وأما رابعًا: فلأنها صناعة تستعمل مع الذميّ كما تستعمل مع الملّي، وتبتذل مع الخليع كما تبتذل مع المطيع ، وبها يصير الإنسان داخلاً في جملة الخاصَّة ،

الذين هم يبنون أمرهم بين نفي الشيء وإثباته على البصيرة ، وخارجًا من طبقة العامَّة ؛ الذين يلقون أزّمة أمورهم إلى مقتاديهم بغير حجة. والله تعالى يقول: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] .

وإذ قد وجد أهل هذه الصناعة ذا بين عن حريم الدين ، ومستخلصين له من لواحق القدح ، وصائبين لأصوله من شوائب الجرح – فمن الواجب أن نعلم أن آثارهم في استحقاق الشكر والإحماد لن تكون قاصرة عن آثار المدافعين عنه بالجلد والقوة ، والسلاح والعدة .

فهذا هذا .

* * *

(1) سورة يوسف الآية رقم (١٠٨).

ثم إن صنفًا من الإمامية ، وطائفة من الحنابلة ، عابوا صناعة الفقه ، ونسبوا أربابها إلى ارتكاب البدعة ، وقالوا: إن لأحكام الدينيّة من حقها أن يتبع فيها الكتاب والسنّة دون الرأي والقياس . وخصوصًا في باب التحليل والتحريم فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾[1] .

وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2] ، وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3] .

ونحن نقول: إن من ذهب في علم الفقه هذا المذهب فقد دلّ من نفسه على جهل عظيم:

أما أولاً: فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[4] .

وقال رسول الله ﷺ: ((رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)) .

ثم رضي من معاذ حين وجهه إلى اليمن فقال: ((بم تحكم بعد كتاب الله

---

(1) سورة النحل الآية رقم (١١٦).

(2) سورة المائدة الآية رقم (٤٤).

(3) سورة الأعراف الآية (١٥٨).

(4) سورة التوبة الآية رقم (١٢٢).

وسنة الرسول؟)) ، فقال: ((أجتهد رأيي)) .

وأما ثانيًا: فلأن الصحابة كلهم بعد رسول الله ﷺ كانوا فرقتين: فرقة أقدمت على استعمال المقاييس ، وفرقة آثرت الكفَّ عنها من غير أن توجَّه المعابة على الفرقة الأولى .

وليس يشك أنه لو كان محظورًا في الدين لوجد منهم طائفة تستنكر صنيع أولئك .

وإذن قد دلَّ سكوتهم عنه على أنهم لم يعتقدوا فيه الخطر ، فصار استعماله على الحقيقة حكما إجماعيا .

وأما ثالثا: فلأن الآثار المرويَّة وإن كثرت فإنها تنحصر بحيث لا يحتمل الزيادة عليها ، والحوادث العارضة للخليقة هي في القوة غير متناهية ، ومهما حُظر الاجتهاد على المتقين لم يوجد بُدّ من الرجوع إلى أحد الوجهين .

إما القول بإثبات إمام معصوم كما ادعته الاثنا عشرية ، وإما القول بتجريز كل ما استحسنه العقل كما ادّعاه النظام:

فأما الإمام المعصوم فلن يوقف على مكانه ولن يتوصل عند وقوع الحادثات إلى الرجوع إليه ، وأما العزم على ما استحسنه العقل فهو أعظم بدعةً عند الحنابلة والإمامية . فإذن لابد من ردِّ الفرع إلى الأصل ، تمسكا بسنة الأفاضل من الصحابة .

وأما رابعًا: فلأن من قوة هذه الصناعة أنها وجدت مشاركة للملك في سياسة الخليقة ، وأعني بهذا أن الملوك لو أعرضوا عن جماعة المحدّثين وجماعة المتكلمين ولم يستعينوا بواحد منهما لأخلوا بما هو عمدة في قوام ملكهم .

وبمثله لو لازموا الإعراض عن جملة الفقهاء لكانوا قد أفسدوا ملكهم ، فإن أحوالهم فيما استنبطوه من الأحكام - في معاملاتهم - لفصل الحكومات ، وقطع الخصومات ، وكتب الوثائق ، واستعمال الشروط ، مضاهية لأحوال الأطباء الذين اعتدوا للأدواء المردية قبل حدوثها أدوية يستشفى بها عند طلب البُرْءِ منها .

وكما أن الله تعالى أقام للخليقة أصول الأغذية ثم هداهم لجهات تمييزها ليستخلصوا باجتهادهم خصائص المرافق منها - كذا أيضا شرع لهم في أمر دينهم أصولاً جامعة ، ووهب لهم العقول الصحيحة ، ليستعملوها في ردّ الفروع إليها .

فأما البحث في أحكام الله - تعالى جدُّه - بالتحليل والتحريم ، والافتراء على الله والحكم بمخالفة ما أنزل الله تعالى ، فشيء لا يزن به أحد من أرباب الصناعة:

هذا أبو حنيفة هو أحد من ثلبته الحنابلة والإمامية بأنه أفشى طريقة الرأي في الأمة ، وقد سئل عن القياس: « أنتركه عند خبر الرسول؟» قال: « نعم »، فقيل: « أنتركه عن قول الأئمة من التابعين؟» فقال: « التابعون رجال ونحن رجال » .

وإنما فرّق بين الصحابة والتابعين لعلمه بأن الصحابة قد سعدت بمشاهدة أحوال التنزيل ، بل بمشاهدة أحوال الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله .

وليس نشك أنّ المشاهدة لها قد يقف من حقائق معانيها على ما لا يقف عليه الغائبون عنها .

ثم أحوال التابعين مضاهية لأحوال الصالحين في الغيبة عن دلائل تلك الأحوال.

وإذ كانت هذه الصناعة من خاصية الشرف بالمحلّ الذي وصفناه ، فبالحري أن يستوجب أربابها الشكر والإحماد ، فضلا عن أن يقابلوا بالطعن والتقريع .

فهذا هذا .

* * *

وإذ قد ظهرت لنا خاصية كل واحد من العلوم الدينية في استحقاق الفضيلة ، فمن الواجب أن نصرف القول إلى ذكر الأبواب اللازمة لكل واحد من هذه الصناعات الثلاثة فنقول:

أما الذي يستصلح به صناعة الحديث فهو أن يكون المنتمى إليها – مع حفظه الأخبار، ومعرفته بطبقات الرواة – صادق التحرّج، ظاهر العفاف، سالمًا من الكذب، بريا من التجوز ، فإن صناعته مادة للعقل في إبراز المعارف، والشيء قد يفسد من جهة صاحب المادة ، كما يفسد من جهة صاحب الصورة.

فلا يحمله اللهج بطلب الغرائب من الأخبار على سماع الحديث من غير الثقات ، ولا يحمله حب التقليد لأئمة المتحدثين على استشعار البعض لصناعتي الفقه والكلام ، فإن صناعته حفظية وقبالتها صناعة فكرية .

وأما الذي يستصلح به صناعة الكلام فهو أن يكون المنتمى إليها – مع عرفانه أبواب المقاييس، ومثل الاجتهاد، وتأليف المقدمات لاستخراج النتائج – مستبصرًا في اعتقاده ، متحققًا لمذهبه ، مستنكفًا عن إتباع أشياخه بحسن الظن،

متعففًا عن التدليس عند لزوم الحجة .

مستوفيًا عن التدرُّج إلى المغالبة والاستعلاء على الخصم بحسب الاستطالة فإنه متى لم يأخذ نفسه به يوشك أن يصير مثيرًا للفتنة ، فيخسر به الدنيا والآخرة .

وأما الذي يستصلح صناعة الفقه فهو أن يكون المنتمي إليها — مع تحققه لقويّ الأخبار:

أعني الخبر المتواتر ، وخبر الآحاد ، والخبر المُجْمَل ، والخبر المفصل ، وتحققه لقويّ الإجماع: أعني الإجماع العامِّي ، والإجماع الخاصِّي ، والإجماع النقلِّي والإجماع الغرضي —

شديد الحذر من استعمال الحيل في وجوه الفتاوى، غير متطلب للرخص فيما يعرض من الحوادث بل يكون فيها إلى التوقف والإحجام ، أسرع منه إلى التفحم والإقدام ، فإنه يحكم في دماء المسلمين وأموالهم وفروجهم ، وهي أمانة عظيمة قد التزمها ، ومؤونة شاقة قد انتحب للوفاء بها .

ثم من الواجب على أرباب الصناعات الثلاثة ألا يحمل أحدًا فرط الإعجاب بنفسه وبصناعته على الاستخفاف بما سواه ، وألا يحمله الاغترار بما أوتيه من المهارة في خاصتيّ صناعته على الخوض فيما ليس هو من شأنه ، بل يعمل على تفويض كل صناعة إلى أربابها ، ويوفي العارفين بها ، والمتقدمين فيها ، أبلغ حقوقهم من التبجيل والتعظيم ،

وألا يكابر ما أوجبه العقل الصَّريح لمحبة التقليد ، وخصوصًا لمن لا يشهد له بالعصمة فإن الحق لا يعرف بالرجال ، بل يُعرف بنفسه، فيعلم من أصابه

ويعرف من أخطأه ....

وأن يتأدب بأدب الإمام الأجَلّ على بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – حيث قال: «العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه»،

وإليه يرجع قوله تعالى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1] .

(١) سورة الزمر الآية (١٧).

الفصل الرابع

القول في معرفة أركان الدين

الفصل الرابع

القول في معرفة أركان الدين

إن الحقَّ مفتاح لمن أراده وأحب أن ينطق به؟

لكن للنفوس أوطار تؤثر على طلب الأجر .

ولا بُدَّ للفهم من قادح ، وللمنطق من واع .

وإذا لم تُلْقَح العقول بالتذكرة لم يحسن الصواب منها .

وعلى سبيل إلى الله أعلام ظاهرة ، وشواهدُ واضحة .

ولن يذهب عن الحق من سعى بصدق نية في طلبه .

* * *

وإذ عرف هذا، وقد كان سبق القول منا بأن مدار الدين يكون متعلقًا بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والمزاجر، فغير بعيد أن يعلم العاقل بأدنى الرويَّة أنه ليس ولا واحد من الأديان الستة التي لها خطط وممالك ، وهي المذكورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1] ... إلاّ وله اعتقاد بشيء يجرى سعيه إليه، ومنهج في العبودية يتحرى بالتزامه إقامة الطاعة ، وأوضاع في المعاملات بتنظيم بها معاشهم ورسوم في المزاجر يتحصن بها عن البوائق والأشرار.

---

(١) سورة الحج الآية (١٧)

وإن الواجب عليه أن يتحقق رجحان ما يؤثره من الأبواب الأربعة على ما يزنه منها، لا بحسب الاقتداء بالسلف بل بمقتضى العقل الصريح ، .

وأن يتأمل فيه معنى قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] .

وإذا كان هذا أمرًا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه ، فمن الواجب أن نصف الأركان التي عليها مدار كل واحد من هذه الأقسام الأربعة: أعني الأركان الاعتقادية ، والأركان العبادية ، والأركان المعاملية ، والأركان المزاجرية ، ليتمكن به المتدين من مقابلة كل ركن مما يدين به بنظيره الذي أطرحه من الأديان ، فنقول:

أما الاعتقادات فمدارها عند ذوي الأديان الستَّة لن يكون إلاَّ على أركان خمسة وهي: الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2] .

وأما العبادات فمدارها أيضا عند ذوي الأديان الستة لن يكون إلاَّ على

(١) سورة الزخرف الآية (٢٣- ٢٥).

(٢) سورة النساء الآية (١٣٦).

أركان خمسة وهي: العبادة النفسانية كالصلاة ، والعبادة البدنية كالصيام ، والعبادة المالية كالزكاة والعبادة الملكية كالجهاد ، والعبادة المشتركة من هذه الأربعة كالحج فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾[1] .

وأما المعاملات فمدارها أيضا عند ذوي الأديان الستة لن يكون إلاَّ على أركان خمسة وهي: المعلومات كالبيع والإجارة، والمناكحات كالتزوج والطلاق، والمخاصمات كالدعاوي والبيِّنات والأمانات كالودائع والعواري ، والتركات كالوصايا والمواريث .

وأما المزاجر فمدارها أيضا عند ذوي الأديان الستة لن يكون إلاَّ على أركان خمسة وهي: مزجرة قتل النفس كالقود والدِّية ،

ومزجرة أخذ المال كالقطع والصلب .

ومزجرة هتك السِّتر كالجلد والرجم .

ومزجرة ثلب العرض كالجلد مع التَّفيق .

ومزجرة خلع البيضة كالقتل عن الرِّدَّة .

فقد ظهر إذن أن الأركان الأول للأديان الستة بالغ عددها عشرين ، وأن الواجب على من أحب أن يكون عارفا بفضل الملة الحنيفية على الملل الآخر أن يقيس واحدًا بما اشتملت عليه منها بالذي هو نظيره من المرتب تحت الأديان الأخر، ويحكم عقله في التمييز بين الأشرفَ والمشروف ، ليتوصل به إلى درجة المستبصرين .

(١) سورة الحج الآية (٣٤).

ويوقن أنه قد أصبح بمزِّيتها من الكرامة الإلهيَّة بالقسط الأوفى ، وخصوصا إذ قال لمحمد عليه الصلاة والسلام:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

وإذ عرف هذا فمن الواجب أن نعلم أن أفضل أصناف الأركان الدينية هي الخمسة الواقعة تحت جنس الاعتقادات ، فإنها معدودة من حيز العلم ، والأصناف الأخر هي معدودة منه حيز العلم ، والأصناف الأخر هي معدودة من حيز العمل .

وليس يشك أن نسبة العلم إلى العمل مضاهية لنسبة العلة إلى المعلول، أو لنسبة البدء إلى التمام. والشيء متى فسدت علته واختل بدؤه لم يلحقه الصلاح أبدا، والشيء إذا بطل تمامه فقد لحق الخلل بدؤه لا محالة.

ولهذا ما وجد أمتن أسباب الولاية ، وابلغ دواعي العصمة ، اتفاق الاعتقادات التي لها تبذل المهج والأرواح ، ولأجلها تحتمل المحن والمشاق ، حتى أن الرجل قد يكون موسومًا بطهارة الأخلاق ، وبالعفّة والسداد ، ولا يلتفت إلى فضائله ، إذا كان مدخول العقيدة ، بل تُنفى عنه صفة العدالة ، وينزل منزلة الفجار في الشهادة ومنزلة الأباعد في الميراث ، ومنزلة السّفل في المناكح .

ثم الذي يتبع الأركان الاعتقادية في شرف الرتبة أركان العبادات، فإنها أمارات الشكر للنعمة، وسمات الخضوع والطاعة. ولعلوّ منزلتها توجد عند أهل الأديان مختصة بفضل الإجلال.

[1] سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

فإن واحدًا من الملوك لو أقدم على تعطيل حد من الحدود لما وجد عند أهل الإسلام من الاستعظام لأمره ما يوجد عند إهماله جمعةً من الجمع وكذا حال النصارى في تركه سنَّة المعمودية. وحال اليهود في تحليله حُرمة السبت.

ثم الذي يتبع الأركان العبادية في شرف الرتبة أركان المعاملات، ثم من بعدها أمر المزاجر.

وقبل أن نشرع فيما وعدناه من مقابلة ركنٍ بركن مما يترتب تحت الملة الحنيفية بنظيرة من الرُتَّب تحت الأديان الأخر، يجب أن نقدم مقدمة فنقول:

إن تبيان فضيلة الشيء على الشيء بحسب المقابلات بينهما قد يكون صوابًا وقد يكون خطأ.

وصورة الصواب معلقة بشيئين:

أحدهما: ألاَّ يُوقع المقايسة إلا بين الأشكال المتجانسة، أعنى ألا يعمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه، ويعمد إلى أصل من أصول هذا فيقابله بفرع من فروع ذاك.

والآخر: ألا يعمد إلى خلة موصوفة في فرقة من الفرق، غير مستفيضة في كافتها فينسبها إلى جملة طبقاتها.

ومتى حافظ العاقل في المقابلة بين الأشياء على هذين المعنيين فقد سهل عليه المأخذ في توفية حظوظ المتقابلات، وكان ملازمًا للصواب في أمره.

والله ولي الصنع والخيرة



الفصل الخامس

القول في فضيلة الإسلام بحسب الأركان الإعتقادية



الفصل الخامس

القول في فضيلة الإسلام بحسب الأركان الاعتقادية

إن الدِّين كريم الصحبة، يُعز من لجأ إليه، ويستر عيوب من اتصل به، مع ما يذخر له في عاقبته من الغبطة الأبدية.

وكما أن من عدم العقل لم يزده السلطان عزاء كذا من عدم الإيمان لم تزده الرواية حكمة. والعوام يقصدون الحسنات فيخطئونها؛ لجهلهم بشروطها، والفجَّار يقصدون السيئات فيرتكبونها؛ للشرارة التي قد ارتضوها. فقد جمعها تنكب الحسنات وأحدهما رداءة القصد لتعاطي الشر.

فنحن إذن جدراء بأن نسأل واهب العقل: أن يرشدنا إلى طريق الفضل، لنلاحظ الحقائق بنور الحق.

وإذ تقرر هذا، وقد ذكرنا أن اعتقادات المتديِّنين راجعة كلها إلى التي كان التي هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن الواجب علينا أن نقابل كل واحد مما أسَّسه الملة الحنيفية منها بنظيره من الأديان، ليتَّضح به شرف الإسلام عليها – فمن الواجب أن نصرف السَّعي إليه.

وأن نبدأ أولا بإثبات الصانع فنقول:

إنَّا لم نجد أهل دين من الأديان عنوا بتقديم المقدمات العقلية؛ لاستخراج النتائج النظرية، في استخلاص توحيد الله تعالى من شبهات المعاندين، ومغالطات المغالطين – ما عُني به مكلمو الإسلام.

فإنهم بلغوا فيه مبلغا شهد المعنيون بالفلسفة، والمحققون من ذوي الحكمة، على تقدم شأوهم في تحصيل الحق منه، وسلامتهم عن التشبيه الذي اعتقده

اليهود، والتثليث الذي اعتقده النصارى، والضد الذي اعتقده المجوس، والشرك الذي اعتقده عبدة الأوثان.-حتى جرّدوا القول بالتصريح فقالوا: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[1] .

ثم أجروا كلمة الإخلاص في دعائهم، حتى إنك تجد العملة والصّنّاع والمحاربة والحرّاثين يتنادون بها في البر والبحر، والسهل والجبل ، ليلاً ونهارًا ، ومساء وصباحا .

مُصدقين به لما وصفوا في الكتب المنزلة بأنهم يملأون الأرض تهليلاً وتسبيحًا ، وتكبيرًا وتحميدًا. وأهل سائر الأديان لا يذكرونها إلا بالفرط النادر. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾[2] .

* * *

وأما إثبات الرسل فإن أحدًا من أهل الأديان الستة لم يسلم في طرفي الغلو والتقصير في شأنهم إلا الإسلاميون:

أما الغلوُ فما ادعته النصارى في عيسى.

وأما التقصير فبجحود اليهود نبوة إبراهيم، والاقتصار من وصفه على أنه كان رجلا صالحا ونسبتهم لوطا إلى الفجور ببنتيه في حال السُكر.

(١) سورة آل عمران الآية (٦٤).

(٢) سورة الفتح الآية (٢٦).

وأهل الإسلام سلموا عن ذلك، وقالوا في الأنبياء كلهم: إنهم عباد الله مصطفون، وخيار معصمون. ثم روَوا تجمع كلمة الشهادة وصف نبيهم بالعبودية والرسالة، تحرزًا عن أبواب الزلل، حتى أن الخلفاء الذين هم أئمة الدين ليسوا يفتحون كتبهم إلا بقولهم: « من عبد الله فلان أمير المؤمنين؛ بل جرَّدوا القول فيهم بأن قالوا: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

* * *

وأما إثبات الملائكة فإن أحدًا من أهل الأديان الستة لم يسلم من العقائد السقيمة فيهم ما خلا الإسلاميين:

وذلك كادعاء عبدة الأوثان بأنهم بنات الله.

وادعاء الثنوية والمجوس ما يذكرونه لهم من الرفعة الإلهية.

وادعاء اليهود : أن فالواحد فالواحد منهم قد يجوز أن يرتكب الكفر، وأن يعاقبه الله – تعالى جدُّه – بالمسخ.

فأما أهل الإسلام فقد جرَّدوا القول فيهم بأنهم عباد الله: ﴿ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

* * *

(١) سورة البقرة الآية رقم (١٣٦).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٦– ٢٧).

وأما إثبات الكتب فإن دينًا من الأديان لن يخلو عنه؛ فإن الرسالة والرسول من المضاف. ومن شأن كل نبي أن يعرف عن الله ويعبِّر عنه ما يوجبه إليه بحكم الرسالة:

فالكتب السماوية وإن كانت كلها جليلة القدر كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾[1] - فالذي استجمعه القرآن من الفضيلة في صورة الخطاب، ومن الفضيلة في نظم الألفاظ، ومن الفضيلة في تأليف المعاني، هو شيء باين به الكتب:

فأما صورة الخطاب فلأنه على هيئة تدلُّ على أنه خطاب خارج عن ملك مقتدر لخوله وعبيده، فيما يجب أن يلقيه إليهم من عزائم أمره ونهيه، ووعظه وزجره، ووعده ووعيده.

وليست الحال في سائر الكتب الآخر كذلك، بل الخطاب منه خارج على هيئة مُضاهية لكلام رجل حكيم، أنبأ عن حكمته بألفاظه وعبارته، ونسب بعض تلك المخاطبات إلى ربِّه.

وأما نظم الألفاظ فلأنه خرج على مثال أظهره لأهل المعرفة بوجوه التأليف أنه غير مشابه لما ابتذله البشر فيما بينهم، وأن من رام أن يزيد فيه عدة آيات أعجزه عجيب وصفه، وافتضح عند أهل البصيرة.

وليس كذلك حال الكتب الأخر.

(١) سورة عبس. الآية (١٣- ١٤).

وخليق أن يرجع إليه قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[1]

وأما تأليف المعاني فإنه خرج مخرجًا عجيبًا؛ يجتمع في الجزء منه الشبيه بما هو موجود في الكل، أعنى أنه لا يقرأ الإنسان منه عدة آيات إلا وقد ورد منه على الأبواب الاعتقادية، والأبواب العبادية، والأبواب المعاملية، والأبواب الزجرية، بل وعلى الأبواب الأدبية العقلية، وأخبار الأمم الماضية، على بلاغة مُيسَّرة للذكر، ووجازة مسهلة للحفظ، ومعان لو بسطت لاستغرقت الأخلاد والطّوامير.

وليس هكذا حال سائر الكتب؛ بلى هي مبسوطة كمعانٍ مقسومة.

* * *

وأما إثبات المعاد فالذي يعتقده الإسلاميون متى أضيف إلى سائر ما يعتقده أهل الأديان، وحكم العقل فيه، ظهر فضله:

فإن بعضا منهم يعتقدون القول بالتناسخ.

وبعضهم يعتقد أن انقلاب النفس إلى حالة الضياء والنور هو الثواب، وانقلابها إلى ضدّه هو العقاب.

وبعضهم يعتقد أن تخلص الأرواح من الأجساد هو الثواب وضده هو العقاب. ثم الذي بُني عليه الإسلام هو:

---

(١) سورة فصلت الآية (٤١، ٤٢).

أن العالم منقض بالساعة التي هي: ﴿ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾[1] .

وأن الله تعالى يعيد الأرواح إلى أجساد الموتى، على تركيب تتحدُ به قوّتا الحس والعقل؛ فتعرف الأنفس بقوة العقل أحوالها التي مضت عليها في حال الدنيا، وما اكتسبت من حسنة وسيئة، وتدرك بقوة الحس اللذات التي تتمتع بها، والآلام التي تتعذب بها.

وإن الثواب لا محالة يقع في جنس الملذّ، والعقاب في جنس المؤلم، وأن كيفيتها لن تدرك إلا بأن يجعل لها عِيار مما شهدته الحواس من أجناس الملذات والمؤلمات:

أما في جنس الملذات: فكالمطاعم، والمشارب، والمناكح، والملابس، والمناظر المونقة، والروائح الطيبة، والمسموعات الممتعة، والخدم الرُّوفة، والأنس والمحادثة.

وأما في جنس المؤلمات: فكالمحابس، والسجون، والسلاسل، والأغلال والأنكال ، والتحريق بالنيران ، والتعيير من الإخوان .

وأنه لن يجوز أن تكون الأجسام هناك متركبة من الأخلاط الفاسدة، والأمشاجِ المتضادّة فإنها لو كانت كذلك لتسلّط عليها البلى والانفكاك .

---

(١) سورة الحج الآية رقم (٧).

ثم تكون الحواس المضافة إليها مشاكلة لها في الخلوص والبقاء ، فتنال لذاتها نيلاً روحانيا مُهذبًا ممن الثقل والدنس . وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[2].

فهذا هو جمل ما يتوصل به العاقل إلى عرفان فضائل الإسلام في الأركان الاعتقادية على الأديان الأخرى.

(١) سورة الواقعة الآية (٦١).

(٢) سورة السجدة الآية رقم (٧).



الفصل السادس

القول في فضيلة الإسلام بحسب الأركان العبادية



الفصل السادس

القول في فضيلة الإسلام بحسب الأركان العباديَّة

إن أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين، ليجد كل من ذوي الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه، وليستجمع له منه خير دنياه وآخرته.

وكل دين لم يوجد على هذه الصفة، بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل، فمن المحال أن يسمى هينًا فاضلا.

وذلك مثل ما تمسك به رهابين النصارى من هجران المناكح، والانفراد في الصوامع وترك طيبات الرزق.

وما يتعاطاه الصدّيقون من الثنوية من حمل الأنفس على الوجاء والخصاء، وملازمه الأصول الخمسة، التي هي عندهم: الصدق، والطهر، والراحة، والقدس، والمسكنة دون غيرها من حركات العمارة.

وما انتهجه نساك الهند من إحراق الأجساد، وتغريقها في الماء، والتردي من الجبال، وإهلاكها بالضم والأزم.

ولو أن الله تعالى أراد بعباده حملهم على إهلاك الأنفس لما علّمهم صنعة لبوس لهم لتحصنهم من بأسهم، ولما جعل لهم سرابيل تقيهم الحر، ولما هداهم لصنوف العقاقير النباتية ليستشفوا بها من الآلام المعترية.

ولعمري: إن الإنسان لن يسلم في حياته الدنياوية من تكلف المؤن الشاقة، فإن جبلة العالم مؤسسة على امتزاج المحابّ بالمكاره. ولكن أين نفع ما يكد

ويحمد، مما يعطب ويهلك؟!

ومتى تُشبَّه احتمال ظمأ الهواجر للصوم من السنة في الشهر الواحد، والاغتسال من الجنابة في السَّبرات، وسفرة يتجشمها عند الطاقة في مدة عمره لقضاء منسك الحج – بصيام الرجل أسبوعًا حتى تثقل بدنه الرطوبة الغريزيَّة وبترك اتخاذ الأهل والوطن لإيثار السياحة في الأرض؟!

* * *

وإذا تقرر هذا فمن الواجب أن نصرف القول إلى ما وعدناه فنقول:

أما العبادة النفسانية – فشيء تشترك فيه الأديان. غير أن ما يستعمله أهل الإسلام منها هو الأفضل؛ لوجهين: أحدهما الكمية، والآخر الكيفية.

أما الكمية فإنها لم تفرض من الكثرة في حيز الإسراف، نحو صلوات الثنوية ورهابين النصارى.

ولا أيضا من القلة في رتبة التقصير، نحو صلوات المجوس بل توسطت بينهما على حد يتسع للمتدين بها التصرف في أسباب المعاش مع قضاء حق التعبُّد؛ إذ جعل عددها:

أما في النهار فثلاثة: أعني في أول النهار، وأوسطه، وأخيره.

وليس يُشكُّ أن الثلاثة هي أول عدد يوجد له المبدأ والمنتهى والواسطة. وجعل مبلغ ركعاتها العشرة، التي هي أول عدد حكمه حكم الواحد في جنسه.

وأما في الليل فقد كان المفروض فيه صلاتان، وكانت الثالثة – أعني الوتر – مُستحبًا أداؤها .

ثم ألحقت في الأخيرة بها – في التأكيد – بالفريضة ، فحصل عدد صلوات الليل بالغًا الثلاثة أيضا. وأكمل عقد ركعاتها بالعشرة أيضا .

فصار الليل لتعادلهما في عددهما وعدد ركعاتها: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[1] .

وأما الكيفية فلأن شيئا من الصلوات لأهل الأديان لم يتناسق أداؤه في أشكال الخضوع على المبالغة كتناسق صلاة الإسلاميين. وذلك أن أشكال التخاضع للملوك تنقسم أربعة أقسام:

أحدها: القيام بين أيديهم.

والثاني: مُطامنة الظهر لهم.

والثالث: تعفير الوجه بالأرض.

والرابع: الجثو على الركبتين .

وصلاة أهل الإسلام مخصوصة بسمة الدخول فيها قولاً وعملا: أعني التكبير مع وضع اليد والاعتقاد بالقلب، وبسمة الخروج منها قولاً وعملا: أعني التسليم مع الالتفات إلى الجانبين.

وهي مصونة عن أنواع الكلام، وصنوف الأشغال؛ لتنزل على توفية المقام حقه من التعظيم ثم المتحرِّم بها يأتي من أركانها الشيء بعد الشيء، على هيئة شبيهة بخادم تقدم إلى ملك عظيم فوقف بين يديه، مستشعرًا هيبته، مثنيا عليه، حتى إذا استدناه كفَّر له بمطامنة ظهره.

---

(١) سورة الفرقان الآية (٦٢).

حتى إذا زاد في الاستدناء منه عفَّر وجهه – لفرط الخضوع – بالأرض حتى إذا أذن له في الجلوس جثا على ركبتيه بين يديه، ملازمًا في إشكاله الأربعة لإقامة حتى إحماد الثناء والتمجيد، على أتم المبالغة.

وليست هذه الفضيلة لشيء من صلوات أهل الأديان الأخر: فإن بعضها ما قد جعل ذا ركوع بلا سجود، وإن بعضها ما جعل ذا سجود بلا ركوع، وبعضها جعل خلوًا عن سِمة الدخول والخروج:

هؤلاء النصارى هم أشد الناس شغفا بهذه العبادة، ثم حالهم فيها شبيهة بحال قوم قصدوا التنافس بالنغم التي تدعى ألحان البيع.

ولو لم يكن للإسلام من المنقبة في إقامة هذه العبادة إلا الأذان المعلق حكمه برفع الصوت على المراياه[1] بالتكبيرتين والشهادتين، وبالدعاء إلى المرغوبين الشريفين – لكان ذلك مما يكسب لها مزية راجعة.

بل لو لم يكن لها من المنقبة إلاّ الجمعة المؤسسة في محل أسبوع على أن يسعى أهل كل مملكة إلى سُرَّتها ليجتمعوا في البقعة الواحدة، ويخرج إليهم سائسهم بشعاره من أبواب الأسلحة، ويختص لنفسه مرتفعًا يشرف على رعيته منه.

فيقبل عليهم بالوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد، ويذكرهم مصالح داريهم. بل يبدئ بإخلاص الحمد لمولى النعم، وبعده الصلاة على أنبيائه عمومًا، ويذكر خاتمهم فيسلم عليه خصوصًا.

وعلى عامة الراشدين من خلفائه، وعلى جميع من يكون عليهم من أمرائه

(١) أي على المئذنة.

خصوصًا؛ ليشعر القلوبَ هيبتهم، ويقوّي على طاعتهم، والقوم مصغون إليه، لا يجوز لأحد منهم أن يشغل بشيء من الأحاديث عن التدبر لما يقرع به مسامعهم، حتى إذا فرغ من خطبته أقام لطبقات رعاياه تلك العبادة المعظم قدرها.

لكان ذلك مما يكسب لهذه الملة شرفا لن يعقل جلال إلا المتحقق لجامع أركان الدين والملك وليس لشيء من الأديان الأخر هذه الفضيلة الرفيعة.

* * *

وأما العبادة البدنية – وهي الصيام المشتمل على صورة التقلد للأمانة في أشياء ينجذب إليها الطبع، والصبر على حفظها مع دواعي النفس إلى الإخلال بها – فشيء تشترك فيه الأديان الستة.

وهي شريعة واقعة في جنس ظلف النفس عن تناول اللذات الحيوانية ، وعزفها عن الشهوات الجسدانية ، اعترافا بأنه في حصاد الدين ، وتحت حكم الإباحة والحظر.

وأن الواجب عليه أن يقتفي مرضاة مولاه – عزا سمه – في التحرج عن تسليم النفس لكل ما تشتهيه ، وإمراجها في كافة ما تقترح عليه .

وكل من تأمل سنن هذه الأديان في إقامة هذه الشريعة ، واعتبر وضعها بحسب الكمية والكيفية ؛ علم أنه لا سنة فيها أحسن في مقتضى العقل من سنة أهل الإسلام:

أما من جهة الكمية: فلأنه لم يطل فيمل ؛ كصوم الرهابين من النصارى ، والصديقين من الثنوية وعبدة الأصنام ، ولم يقصر فيقلّ؛ كصوم المجوس ، إذ ليس هو بصيام على الحقيقة .

وأما من جهة الكيفية: فإنه لم يجعل كصوم النصارى والثَّنوية الذين يعتقدون منه تحريم اللحمان، ويسلطون على أنفسهم التحول، وكصوم اليهود المتفرق في أيام السنة على صورة لا يوجد لها نظام مستقر ، ولا تعرف أوقاتها إلا خصائص علمائها.

بل عُلِّق أمرها برؤية الهلال الظاهر للأعين ، وجعل شعارها تطهير النفوس عن جميع ما يدنسها من الآثام.

وكفّها عن اللذات الثلاثة: التي هي المأكل والمشرب والمنكح مع الاعتقاد بأنه وإن وجب الإمساك عنها فإنه ليس بمحرَّم عليه؛ إذ هو مأمور به عند المرض والسفر ، ومرخَّص له في الإفطار .

ثم جعل من رتبة الإنفاق على كل من يتصل بحمله مُزكيا والقيام في لياليه متهجدا والاعتكاف في المساجد المأهولة متقربا.

ثم خص لانتهائه عبادة تدل هيئتها على عز الدولة ونباهة حال الملة، وشرف الجود بالقنية، وأخذ الحظ من السرور والبهجة، بعد الذي يُسِّر له من الزلفى والقربة وليس للأديان الأخر في صيامهم مثل هذه الرتبة الحميدة.

* * *

وأما العبادة المالية – وهي الزكاة المشتملة على التسمح بالأموال الثلاثة: أعني الحيوانية والنباتية والمعدنية – فشيء تشترك فيه الأديان كلها ما خلا النصرانية؛ فإنها أسست على التأله المحض، .

وقد سئل المسيح ﷺ عنها فقال: «متى أبحت لكم اقتناء المال حتى تسألوا عن تفرقته؟».

ثم اتبعه في ذلك ماني؟ إذ قد ادّعى دينًا ممزوجًا بين النصرانية والمجوسية، على نحو ما شرحناه في كتابنا الملقب بـ «الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد» .

وأما اليهود فإنهم يرون أخذ العشر من النبات والحيوان.

والمجوس أيضا يرون الحثَّ على المواساة بثلث المال للأزواج.

إلاّ أن الإسلام يفوق الأديان كلها في تأكيد أمرها؛ إذ قد جعلها فريضة واجبة مقرونا ذكرها بذكر الصلوات المكتوبة؛ وجعل الأمر في بعضها مسلما إلى السلطان يستعين بها على مصالح العباد والبلاد ويتوصل إلى إشعار القلوب رغبته ورهبته.

ثم جعل الأمر في بعضها إلى رب المال، ليروض طباعه في السّماحة ويقوي نفسه على التبري من الشح.

ثم لما علم الله – تعالى جده – أن من طباع البشر الشغف بالمال جعل الخطاب، مع المبالغة في الحث عليها، خارجًا على ألطف لطف:

فإنه – عزّ اسمه – أمر بالأخذ مُرغبا في التزكية والتطهير بقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[1] .

ثم سماه قرضا موعودًا له بإعطائه ورد أضعافه عليه بقوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾[2] .

---

(١) سورة التوبة الآية رقم (١٠٣).

(٢) سورة الحديد الآية رقم (١١).

ثم سلا عما يخرجه بتعريف ما يعود إليه حال ملاك الأموال في العواقب، فقال: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[1] .

ثم أخبر أن من بخل بها فقد بخل على نفسه، فإن نفعها راجع إليه ، ومولاه غني عنه فقال: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2] الآية .

ثم أخبر أن الضن بالمال غير مستحسن في العقل ، وإن كان الطبع مائلا إليه، فقال: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] .

ثم نبه أنه راض منه في أدائها فضل المال فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[4] .

ثم أخبر أنها في الحقيقة تنزل منزلة الوقاية للمال، والتحصين له عن الآفات، فقال:

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[5].

فليت شعري في أي دين هذا الاستقصاء البالغ في التنبيه على فوائدها وحقائق عوائدها؟!

* * *

(١) سورة المنافقون الآية رقم (١٠).

(٢) سورة محمد الآية رقم (٣٨).

(٣) سورة الحشر . الآية رقم (٥٩).

(٤) سورة البقرة الآية رقم (٢١٩).

(٥) سورة البقرة الآية رقم (٢٧٢).

وأما العبادة الملكية – وهي الجهاد المشتمل على حراسة الملة – فهو شيء نشترك فيه الأديان الستة.

ولولا قيام أهل الدين بالمحاماة عن دينهم بالسيف لاجتاحهم أعداؤهم، ولظهر الفساد في البر والبحر ولهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد .

فأساس العالم إذن لا يحتمل تركه ، ولهذا ما قيل: « لا يصدق الحرب إلا ثلاثة: مستبصر في دينه ، أو غيران على حرمه ، أو كريم ممتعض من ذل أصابه » .

هؤلاء الثنوية والنصارى – الذين يدينون بأن معاونة الدِّين تكون بالدعاء إليه دون الحرب – لو قصد قاصد بعض هياكلهم بالتخريب ، أو عمد إلى واحد من كتبهم بالإحراق ، لما كانوا مقارِّين له على ذلك ، مع وجودهم السبيل .

فإن المقصود بالضَّيم يجد لا محالة من قوته الغضبيَّة تحريكاته ، حتى لو ريم دفعه عن دواعي الحَمية لوجد في غاية التأبي عليه .

وليس الذي حكى عن المسيح: أن من لطم خدك الأيمن فأمكنه من الأيسر بقادح فيما ندعيه، فإنه قول خارج منه مخرج المثل للإغضاء والاحتمال .

حسب ما يقول القائل لأخيه: إنك إن لطمتني احتملته منك .

وقد ابتلى الأنبياء – صلوات الله عليهم – قبل انتشار دعوتهم بالمحن المحوجة لهم إلى التحالم والصبر . وقد قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن

يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[1].

وأبين من هذا أن نوحًا قال له قومه: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[2].

وقيل لإبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾[3].

وقيل لشعيب: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[4].

وقالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾[5].

وقيل لمحمد – عليه الصلاة والسلام: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[6] الآية.

إلا أنه لم يوجد أهل دين من الأديان قد انبعثوا لإقامة فريضة الجهاد بمثل ما وجد عليه أهل دين الإسلام،فإنهم ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[7]. ولم

(١) سورة العنكبوت الآية (١-٣).

(٢) سورة الشعراء الآية (١١٦).

(٣) سورة مريم الآية (٤٦).

(٤) سورة هود الآية (٩١).

(٥) سورة الأعراف الآية رقم (١٢٩).

(٦) سورة آل عمران الآية رقم (١٨٦).

(٧) سورة الأحزاب الآية رقم (٢٣).

يشترط أيضا لدين من الأديان من خاصية الإعزاز والتأييد ما اشترط لهم بقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

وأما العبادة المشتركة - التي هي النسك الأعظم — فقد اشتملت على عبادة نفسانية، وعبادة بدنية ، وعبادة مالية ، وعبادة ملكية .

وقد قال الله تعالى جده: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾[2] .

يعني لكل واحد من الأديان الستة مُتعبد معظم قدره عند أهله، فهم يوجبون قصده في الحين بعد الحين، ويرون سائر متعبداتهم كالتابع له.

وإنّا لا نجد لشيء من الأديان نسكا أجمع لوجوه البر، ومكاسب الأجر، من نسك المسلمين .

وذلك أن الإنسان متى لابس إقامته صودف في صورة عبد مسخوط عليه ، قد أحسن بموجدة مولاه عليه ، فارتفض أبواب الملاهي ، وهجر أسباب الزينة، ولازم الشغف والتقشف ؛ لائذًا بفناء سيده ، راغبًا إليه في العفو له ، مطلقا لسانه في تعظيمه .

فالأبصار متى وقعت في ذلك المشهد العظيم على ما يوجد المحرمون عليه من هيئات التعبد والخشوع، وما أشعروا به نفوسهم من انكشاف الرأس، وحفاء الرجل، واحتمال مشقة الوضوء والتّفث، والصبر على الدّرن والشعث.

---

(١) سورة النور الآية رقم (٥٥).

(٢) سورة الحج الآية رقم (٦٧).

وهجر اللذات المرغوب فيها: كالطيب، والجماع، والتصيد، والتنظيف بحلق الشعر، وتقليم الأظافر، وما يلزمونه من السعي إلى المكان المنسوب إلى مولاهم ، ليتوافوا كلهم من نواحي العمران ، وأقاصي الممالك في بقعة واحدة ، ويحضرهم ملك الأرض وخليفة الله على الخلق، أو من يقوم مقامه من خَواصّه.

فيعلو منبرًا قد أعد له في ذلك الموسم الكبير، وتتجرد المسامع كلها للإصفاء إلى خطابه وهو يقبل عليهم بالوعظ مرة وبالزجر أخرى، وبالتبشير ثانية وبالإنذار أخرى، وأهل الأرض صموت مستشعرون فيه عظيم هيبة الله أولا، ثم هيبة سلطانه الذي هو ظله في الأرض ثانية – أيقنت أنها واقعة على منظر رفيع لا يجوز أن يدانيه باب من أبواب التعبد .

وإن إحراق المجوس قربانهم بالنار عند هياكلهم غير واقع في شيء مما سعد به المسلمون من نسكهم .

* * *

وإذ قد أتينا على المقابلة بين الإسلام وسائر الأديان في الأركان الاعتقادية والأركان العبادية، وأوضحنا السبيل في كيفية المقابلة بينه وبينها في الأركان المعاملية والأركان الزجرية، ثم كان الطريق فيها أسهل، والمأخذ في أبوابها أقرب.

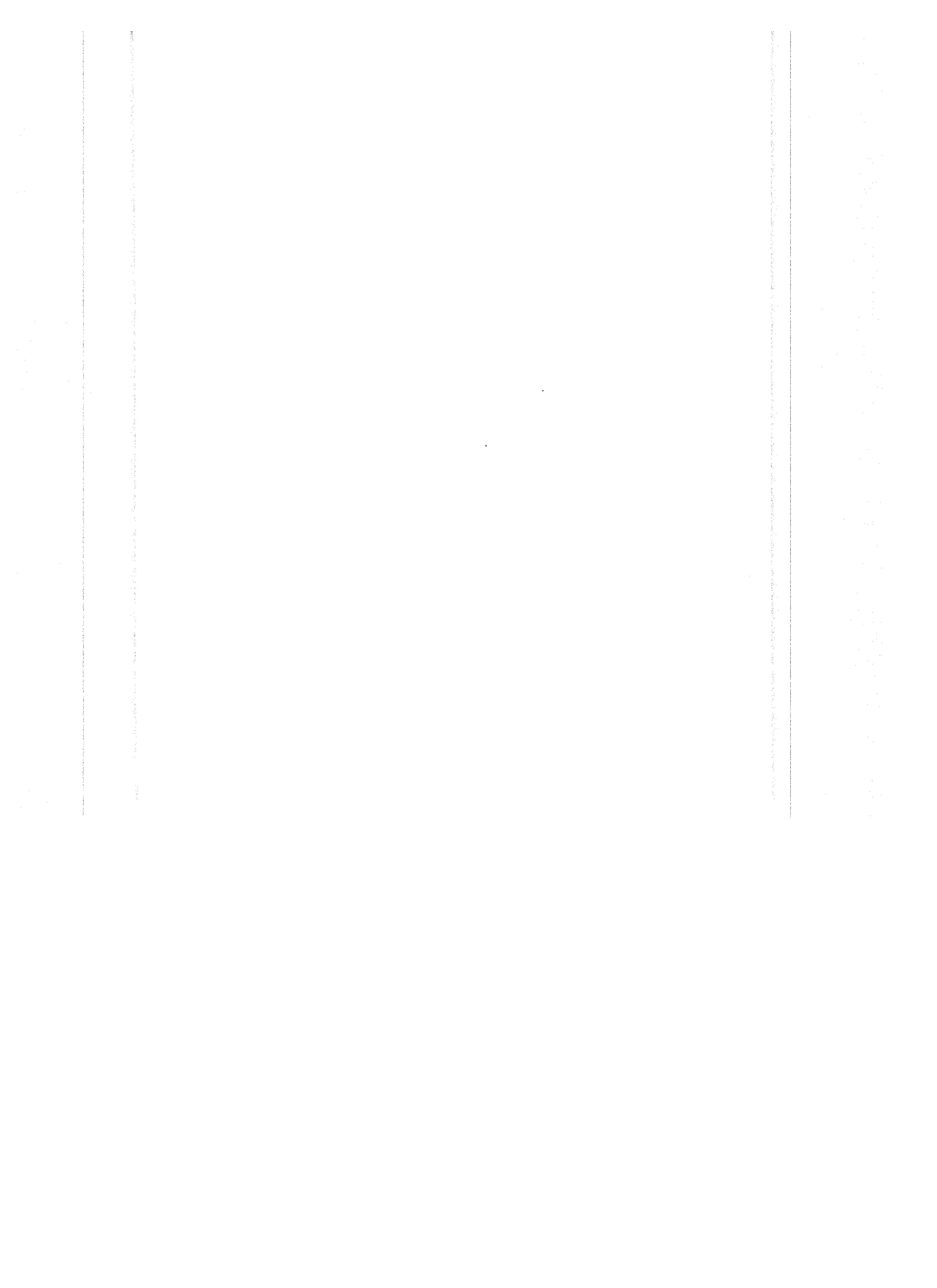
فمن الواجب أن نكل الأمر في معناها إلى الأفهام الذكية، توخيا للإيجار وخصوصا إذ كنا أومأنا إلى بعض منه في كتابنا الملقب بـ « الإبانة عن علل الديانة ».

وأن نصرف القول إلى ذكر فضيلته بحسب الاعتبار بالإضافة إلى الملك ، وبحسب اعتباره بالإضافة إلى المعارف .



الفصل السابع

القول في فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الملك



الفصل السابع

القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الملك

من رضى لنفسه أن يكون فى بعض شيمه حرا ، وفى بعضها عبدا ، فليس هو الذى نفس أبيه.

ومن حاد عن الأفعال الجيِّدة لفرط الشعل تعجيلا إلى الراحة ، فليس هو بذى همة عليه.

ورغبة الملوك فى الأدب تحيى الأدب ، وعند استقامة طرائفهم يقوى الذّب، وعند اجتبائهم أهل الفضل تظهر الفضيلة.

ولن يفرح العاقل بالنعمة التى لا يستحقها ، والمنزلة التى ينالها باسم غيره، والفلج الذى يكون من جور الحكم ، والظّفر الذى ينفق من ارتكاب الخطاء.

ولن يبلغ ألف رجل من إصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن العمل ما يبلغ رجل واحد فى إصلاح ألف رجل فى تصديق القول بالفعل .

وكما أن الأعمى لا يمكنه أن يهتدى ، والفقير لا يمكنه أن يستغنى ؛ كذا أيضا لا يستصلح أحد غيره إلا بعد إصلاح منه لنفسه.

* * *

وإذا تقرر هذا فمن الواجب أن نصرف السعى إلى ما هو غرضنا من القول فنقول: إن أعمَّ المعانى الضرورية التى [تتم بها الرياسة] شيئان :

أحدهما: النبوة الصادقة.

والآخر: الملك الحقيقي.

ولا رياسة فى العلم والحكمة فوق رياسة النبوة.

ولا رياسة فى الاقتدار والهيبة فوق رياسة الملك.

ولن يتفق للإنسان ولا واحد منهما إلا بموهبة سماوية.

وقد قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ ﴾[1] .

وحكى عنه موسى فى مخاطبته قومه: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾[2] .

فإذا كان هذا غير مشكوك فيه فمن الواجب أن نعلم يقينًا أنه ليس أحد أحوج إلى تشريف جوهر مكارم الأخلاق من طبقات الملوك ، فإنهم على الحقيقة أسوة لمن دونهم ؛ وكالمرآة لغيرهم.

ومتى لم تكن المرآة أصفى من وجه الناظر إليها لم ترد شارته على التمام. وأيما ملك لم يبالغ فى قهر الدنى من أخلاقه لم يستمتع بحسن الثناء عليه ؛ ولم يمكنه دفع العيوب عن رعيته.

وإذا عرف هذا؛ ثم تحققنا أيضا أن محل الدين من الملك محل الأس من البنيان، ومحل الملك من الدين محل المتعهد للأركان .

فمن الواجب أن نعلم أنه لن يحكم لدين من الأديان بتحصيل الكمال إلا إذا وجد ضامًا فى نفسه مكارم الأخلاق ليتصرف به المتديِّن بين عائدتى الحمد والأجر.

---

(١) سورة النساء الآية رقم (٥٤).

(٢) سورة المائدة الآية رقم (٣٠).

ولن يشك أن حيازة المحامد الرفيعة لن تتأتى للإنسان إلا بالمعاون الخارجة: أعنى المال والإخوان.

أما المال فلما تعلق به من إظهار الجرأة ، ومواساة الأقارب ، والإفضال على الأصحاب والتفقد للجيران .

وأما الأخوان فلما تعلق بهم من الاقتدار على الأعداء، والدفع عن الحريم والأنفة عن الزّلة ، والمعاونة بالجاه .

ومعلوم أن الديانات المحرّمة على أهلها اقتناء المال، والباعثة على اعتزال الناس ، معدمة لأهلها هذا الصنف من المحامد.

ثم لا يشك أيضا : أن السياسة فى نفسها مفتنة إلى صنفين، وأغراضها متنوعة إلى نوعين ولوازمها منقسمة قسمين:

أما أحد صِنفى السياسة : فالإمامة ؛ وغرضها تحصيل الفضيلة ، ولازمها نيل السعادة الأبدية

والصنف الآخر من السياسة التغلب؛ وغرضها استبعاد الخليفة ، ولازمها الشفاء والخدمة وقد علمنا أن كل قنية أمكن أن يستعملها الإنسان استعمالا حسنا ، وأن يستعملها استعمالا رديئا – فإنها لا محالة نصلح بصلاح الغرض وتفسد بفساده .

ومثاله: أن الفقهاء لما جعلوا غرضهم من صناعتهم الشريفة العائدة بمصالح الدارين الترؤس على العامة ، والحظوة عند السلاطنة ، والتسلط على أملاك الضعفاء ، واستعمال الرُخص فى إبطال الحقوق.

انقلبت الصناعة عن استحقاق الحمد إلى استجلاب المذمة وقد قال الله

تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾[1] .

فمن الواجب إذن أن نعلم يقينًا أن صناعة الملك والسياسة مهما استعملت استعمالا حسنا فإن المعتنق لها، والمستقل بأعبائها، يصير لا محالة مُجتلبا لشرف الإمامة ، ويصير خليفة الله – تعالى جده – فى استصلاح الخليفة .

ومهما استعملت استعمالا رديئًا فإن صاحبها والمفتخر بحيازتها يُبتلى من الضرورة بصفة المتغلبين ، ويعد بقاؤه فضيحة لزمانه .

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **((إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى مال يصيبه أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه))**[2].

وإذ تقرر هذا فمن الواجب علينا أن نجيل الفكرة فيما خصَّ الله تعالى به محمدا عليه الصلاة والسلام من سعة الذكر، بما جمع له من النبوة والملك، وصيَّرها من كمال القوة بحيث طبَّقا واسطة العالم، واستخلصا لباب العمران، وحازا أسرة الممالك.

فاجتمع لملوك دعوته محاسن الرسوم الشريفة المأخوذة من أحكام الدين الحق، ومحاسن المثل السلطانية المأخوذة من أشوس ملوك الأرض: أهو بالإمامة أشبه أم بالتغلب؟

وخصوصا إذ وجدناه مستعملاً للسيف فى موضعه، كاستعماله الإرشاد فى وقته ؛ فنقول:

---

(١) سورة الماعون الآية رقم (٤-٧).

(٢) روي عن عمر بن الخطاب في الكتب الستة (الجامع الصغير للسيوطي).

لسنا نشك: أن الوقائع الحربية بين أصناف الخليقة لن تقع إلا على جهات ثلاثة وهى: الجهاد ، والفتنة ، والتصعلك .

فأما الجهاد : فهو الذى يتولاه عُمَّار البلاد ، وساسة العباد ؛ من الدفاع عن الدين والصيانة للمراتب .

وأما الفتنة: فهو ما يقع بين طبقات الأمم من الهيج والقتال: لتعصب بلدى، أو تعصب نسبى.

وأما التصعلك: فهو ما يقصد به من انتهاب المال، واستلاب الأملاك فالنوع الأول نتيجة القوة التمييزية، وهو محمود عند ذوى الألباب .

وأما النوعان الآخران. فأحدهما: نتيجة القوة الغضبيَّة ، والآخر: نتيجة القوة الشهوية وكلاهما مذمومان عند قوى الألباب .

ونحن متى تتبعنا حال محمد ﷺ فى حروبه ووقائعه وجدناه جاعلاً لقصارى غرضه من الثبات القوى فى مصاف القتال كلمة يبذلها خصمه قريبة من الإقرار بوحدانية من له الخلق والأمر ، والتصديق بما أرسل إليه من عنده — جل جلاله .

حتى إذا وجدها منه أغمد عنه سيفه ، وأوجب على نفسه حمايته ، ومتى ألفاه مصرًا على منابذة الحق صرف ما حواه ذلك الخليع من مال الله تعالى فى أبواب البرّ ، ومكاسب الأجر ، ومعونة من جرد العبودية لخالق البرية ؛ من غير أن يرتاح للتلذذ به ، أو يبتهج بالتمتع من زهراته .

فخرج من الدنيا بعد استخلاص ممالك جزيرته لأهل دعوته على تلك الحالة السويَّة ، والوتيرة الصادقة ، صابرا على بؤسه ، وضيق حاله ، صارفا همته إلى عبادة خالقه .

لا يجنح إلى شيء من زخارف الدنيا، ولا يغتر بأطايبها وإذا كان هذا دأبه، وعليه ديدنه فى عامة أنحائه ، وصنوف وقائعه .

لم يشك أنه ﷺ كان متمسكا فى سيره بصورة عبد قد أخلص الولاية لمولاه وعلم أن عباده كلهم قد انتهكوا حرمته ، وخلعوا طاعته ، واستعانوا بأموالهم على أبواب عصيانه.

فحملته سجية الوفاء لمولاه. وخلق الحفاظ لأياديه، على نهيهم وزجرهم، فبالغ فيه بالقول اللطيف أزمنة طويلة، حتى إذا أيس من ارعوائهم، وأيقن أن الوعظ لا ينجح فيهم، ذهب فى علاجهم مذهب الطبيب المتحدّب الذى خاف إتيان الداء العضال على نفس العليل .

وعلم أن السبيل إلى استبقائه غير موجود إلا بقطع عضو من أعضائه ، فأوقع فى مغازيه بعدد من القتلى ، تدرجًا إلى استنقاذ الجمهور من الهلك والردى.

وذلك لتيقنه بأن المحمولين على شرف الدين فى مبدأ أمرهم كرها متى وقفوا على فضائل دعوة الحق أخيرًا فإنهم – بعد الاستيضاء برونقها – سيعتدون له بجسيم المنة ، وجزيل النعمة ، ويبذل على خدمة مولاهم ليتلافوا به فارطهم ؛ فتصير أحوالهم فيه شبيهة بحال المأخوذ فى صغره بالتأديب وهو يبغض مؤدبه ، حتى إذا عقل وانتبه أيقن موقع النعمة العظيمة فالتزم شكره ، واعتقد إحماده .

وإذ كانت الشريعة الإسلامية مؤسسة منه – عليه الصلاة والسلام – على هذه السنة الحميدة ، فقد عُلم أن من خلفه فى اعتناق المهم من أمر السياسة والملك ، متى أحسن غرضه منه ، واقتدى فى جميع ما يتعاطاه بسُنته.

فهو لا محالة يصير إمام أهل زمانه ، ومفخرا لكافة أعقابه ، بل يصير رحمة للعالم ، وحجة للبشر ، وأسوة حسنة وقدوة حميدة .

وإذا كان الوضع الحقيقي للملك الإسلامي بهذا المحل والجلالة – فمن الواجب أن نعلم أن الآفة متى لحقته فى زمان من الأزمنة فإن المِلة الحقيقية لن تصير معيبة به ، والخلفاء الراشدون لن يصيروا معيرين به ، كما ليس يعير ((أنو شروان))بسيرة ((يزدجرد)) الأثيم .

ثم من الواجب أن نعلم أيضا: أن الناس لما لم يكن لهم بد من الوزعة ، وكان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن – فإنا متى تتبعنا أحوال ملوك الأديان الستة حكم العقل الصريح بأنه لا يجوز أن يوجد منها شيء بالغا مبلغ الإسلام فى وفور القسط من شروط الإيالة ، وجزالة الحظ منها :

فإن دين اليهود مؤسس على الانتصار المحض .

ودين النصارى مؤسس على التذلل المحض .

وفضائل الناس لن تتم إلا بامتزاج أحوال الدين والدنيا ، واشتباك أسباب الآخرة بالأولى. ودين الإسلام هو المنتظم لها كلها ، والوافى بعامة أبوابها . وذلك ظاهر لمن تأمل مواقعها من كتاب الله ؛

فإنه ما من مكرمة إلا وقد جرَّد ذكرها وتحرز في غير موضع من الآيات .

ولعمرى إن للمجوس كتابًا يعرف بـ((أبستا)) ، وهو يأمر بمكارم الأخلاق ويوصى بها ، وقد أتى بمجامعها عبد الله بن المقفع فى كتابه المعروف بـ((الأدب الكبير)) وعلى بن عبيدة فى كتابه الملقب بـ((المصون)) .

إلا أنه – مع تقدمه فى ذلك – غير لائق شيئًا منه بالقرآن :

وكيف يظن به ذلك وقد علم أن الشرف الإنسى عند ملوك العجم كان معلقا بالأنساب ، وكانوا يحرمون على رعاياهم الترقى من مرتبة إلى مرتبة ، وفى ذلك ما يعوق التراكيب السوية عن كثير من الشيم الرضية ، ويقعد الأنفس الأبية عن حيازة الدرجات العلية.

فلو أن دين المجوس كان مؤكدا للأمر باقتناء مكارم الأخلاق حسب تأكيد الإسلام لما تجاسرت ملوكها – مع شغفهم بحمايته – على مخالفة وصيته، ولوجد الشرف الإنسى عندهم معلقا بالنفس الناطقة ، دون النسب الطبيعي .

وإذ كان هذا الدين بركة تعميمية للأدنين والأقصين بالدرجة التى ذكرناها، ثم كانت قاعدته كرامة من الله - تعالى جده- لمحمد - عليه الصلاة والسلام – فبالحرى أن نعلم أن من كانت وصلته له آكد ، وصحبته له أكثر ، كان قسطه من الافتخار به أوفى وأغرز :

وأعنى بهذا: أن لهاشم فيه ما ليس لكنانة، ولكنانة فيه ما ليس لمضر ، ولمضر فيه ما ليس لربيعة ، وللعرب فيه ما ليس للعجم ؛ على اعتبار الأقرب فالأقرب نسبًا ، والأوكد فالأوكد سببا ؛ إلا ما قطعه الدين .

فإن الذى يقطعه هو فلا واصل له والذى وصله هو فلا قاطع له وبقوته يدخل على الأرحام المتماسة فيقطع التوارث عنها .

وإذ قد أتينا على ما وعدنا به من القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الملك .

فمن الواجب أن نصرف السعى إلى تبين فضيلته بحسب الإضافة إلى طبقات الرعايا .

* * *

الفصل الثامن

القول في فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الرعايا



الفصل الثامن

القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الرعايا

على حسب كثرة الرعية يعلو شأن الملك.

وفى كل مخلوق آلة ربما احتيج إليها.

ولكل امرئ عند نفسه قدر.

والعباد ندماء الشهوة.

والقلوب مطايا الأمنية .

ومن راض نفسه على إصلاح هممه صار مالكا لأمره .

* * *

وإذ تقرر هذا: فمن الواجب أن نصرف السعى إلى ما يقتضيه حكم القول فنقول: إنا لما علمنا أن طبقات الرعايا فى كل عصر ينقسمون مرة إلى الشريف والوضيع ، ومره إلى القوى والضعيف ، ومرة إلى الولى والعدو.

فمن الواجب أن نعلم: أنا متى أعملنا قسمتهم بحسب القوى والضعيف ، ثم قسنا الإسلام بحسب اعتبارهما إلى الأديان الأخر ، لم يخف علينا أنه أعظم نفعا وأعم بركة:

أما القوى فلأنه أطلق له الندوب إلى ما تنجذب إليه همته من اكتساب المعالى ، واقتناء المفاخر ، بل أعطاه تمام الأمر عن رغبته الاستعباد . وسياسة الاستخوال.

وأما الضعيف: فإن لحقه الضعف من جهة التركيب، أعنى النساء ، فليس دين من الأديان أزجر من الاعتداء عليهن ، وأدعى إلى الرفق بهن ، من هذا الدين. وذلك ظاهر فى آى القرآن ، وفى أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإن لحقه الضعف من جهة السن ، أعنى اليتامى ، فقد بالغ هذا الدين فى الأمر بحفظهم وحماية أملاكهم. وذلك أيضا ظاهر فيما تضمنه القرآن .

وإن لحقه الضعف فى معاشه ، أعنى الفقراء ، فقد أمر هذا الدين بمواساتهم ، والأفضال عليهم .

وإن لحقه من رقبته ، أعنى الإسراء ن فقد حث القرآن على فك رقابهم ، وذكر بالإعتاق عليهم ، وجعله من عظيم ما يكفر به الخطايا .

وإن لحقه الضعف فى وطنه ، أعنى الغرباء ، فقد وجدت الوصية لأبناء السبيل فى القرآن مكررة .

فهذه هى الفوائد المتوفرة على القوى والضعيف.

* * *

ومتى أعلمنا قسمتهم بحسب الشريف والوضيع. فإن الحال فيها تجده مضاهيا لما وصفناه :

فإن اسم الشرف والضعة معدود من أسماء الإضافة ؛ ولهذا ما روى في الخبر : ((كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته)) [1]. وأعنى أن إلزام التوقير فيه والتبجيل معلق بالاعتبار الإضافى ..

(١) السيوطي في الجامع الصغير. رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي.

مثاله: أن العبد يلزمه رعاية حق والده ، والوالد يلزمه رعاية حقوق مشيخة قبائله، وعليهم رعاية حقوق أمرائهم ، إلى أن ينتهى الأمر إلى ملك الملوك فيلزم كافتهم النجوع لطاعته .

وقد قال النبي ﷺ : ((ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم))[1] . وقال: ((ليؤمكم أقرؤكم لكتاب الله ، وأعلمكم بالسنة فإن كان فيه رجلان فأبينهما صلاحا ، وإن كان فيه رجلان فأكبرهما سنا))[2] .

وقال: ((من لم يرحم صغيرنا ، ولم يوقر كبيرنا ، فليس منا))[3] وقال: ((إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه))[4] .

فهذه هى الفوائد المتوفرة على الشريف والوضيع من هذا الدين .

* * *

ومتى أعلمنا قسمتهم بحسب الولى والعدو وجدنا الحال أيضا مشاكلة لما ذكرنا :

أما الولى فلأن هذا الدين أوجب أسباب المحافظة على الولايات الثلاثة التى هي: ولاية المناسبة ، وولاية المعاقدة ، وولاية الديانة .

ولولا شهرة مواضع الوصية بها فى آيات الكتاب لأوجبنا تلاوتها .

(١) رواه الترمذي وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه (الجامع الصغير).

(٢) رواه النسائي (السيوطي).

(٣) رواه البخاري وأبو داود.

(٤) رواه ابن ماجه والطبراني.

وأما العدو فلأن الدين قد قطع أبواب العداوة كلها ما خلا عداوة الجاحد له ، والمعاند لأحكامه ، وهى فى الحقيقة ثلاثة أنفس :

أحدهم: الملحد.

والثاني: المشرك.

والثالث: الكتابي.

وأكثر آفات الملحد هو استحباب اللذات الحسية التى تعميه تحت تأمل العواقب ، وتدعوه إلى إمراج النفس فيما يشتهيه طبعه .

وأكثر آفات المشرك هو ما يظهر لحاستى سمعه وبصره فى الأوثان المنحوتة من أنواع الأعجوبات ، وما ولدته السدنة على كبار البددة من الأخبار المهولة التى لا يكاد يقف على حقائق الافتعالات فيها إلا الفطن المتقن .

وأكثر آفات الكتابى هو ما وقع فى كتبهم من التأويلات المختلة ، وتسلط على إنجيلهم من الأهوال المُضلِة .

فهذه هى المعاني المعدودة من عظيم ما استغوى به الفرق الثلاثة .

ثم المجوس والثنوية يوجد لهم مشابهة بمال المشرك مرة ، وبحال الكتابى أخرى .

وإذ قد عرف هذا ثم لم يشك أن الإلحاد والشرك ، وإن كانا من أسخف هذه العقائد وأبينها عوارًا ، فإن معالجة أربابها صعب جدًا ، لا لاقتدارهما فى الحجاج أو توسعهما فى الجدال ، بل للمناسبة الموجودة بين اعتقادهما وبين الآثار الحسية .

ولهذا ما يكون مرجع الدين الحق عند الاندراس أبدًا إلى مشابهة الشرك، ومرجع كل متدين فى عقله إلى مشابهة الملحد.

فأما معالجة الكتابى فدون ذلك فى الصعوبة؛ لأن من آمن بكتاب من الكتب المنزلة ، وصدق بالبعث والنشور ، فقد وجدت منه مقدمة تناسب دين الحق وأما علاج المجوس والثنوية فكالمتوسط بينهما.

غير أن افتتاح ظهورهما كان فى مملكة ((إبرا شهر)) التى هى واسطة العمران ، وقد خص أهلها بالاستسلام للعقل فى الأبواب المشكلة ، حتى بشر الرسول باشتمال الإيمان عليهم فقال: ((لو كان الإيمان منوطًا بالثريا لناله رجال من فارس))[1] .

فمن الواجب إذن أن نعلم أن من أعم أسباب الرحمة بهذا الدين أنه ليس بقار الملحد والمشرك فى مملكته نفسه إلا بعقد الأمان. ولو تركها فيها من غير عهد ولا ميثاق حسب ما يترك الكتابى لنفضا شغلهما على استدلال العوام ، ولأسرع الأكثرون منهم إلى إجابتهم .

لقوة سلطان التقليد الحسى عليهم ، ولما وجدت السياسة الفاضلة مستوفية حقها من حسمهم مواد الفساد.

وأما الكتابي؛ فلأن القرآن مصدق لكتابهم ، ومهيمن على ما فى أيديهم ، اقتصر منهم على الجزية التى هى شرائط للملك ، دون شرائط الدين . وأمر الولاة والذادة بحاميتهم ، ليتوصلوا – على طول الأيام بمخالطة أهل الإسلام إلى ما تضمنه القرآن من الشرائع والأحكام ويتنبَّهوا على موقع مزيته على ما اعتقدوه من دينهم .

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي. وقد ضعفه السيوطي.

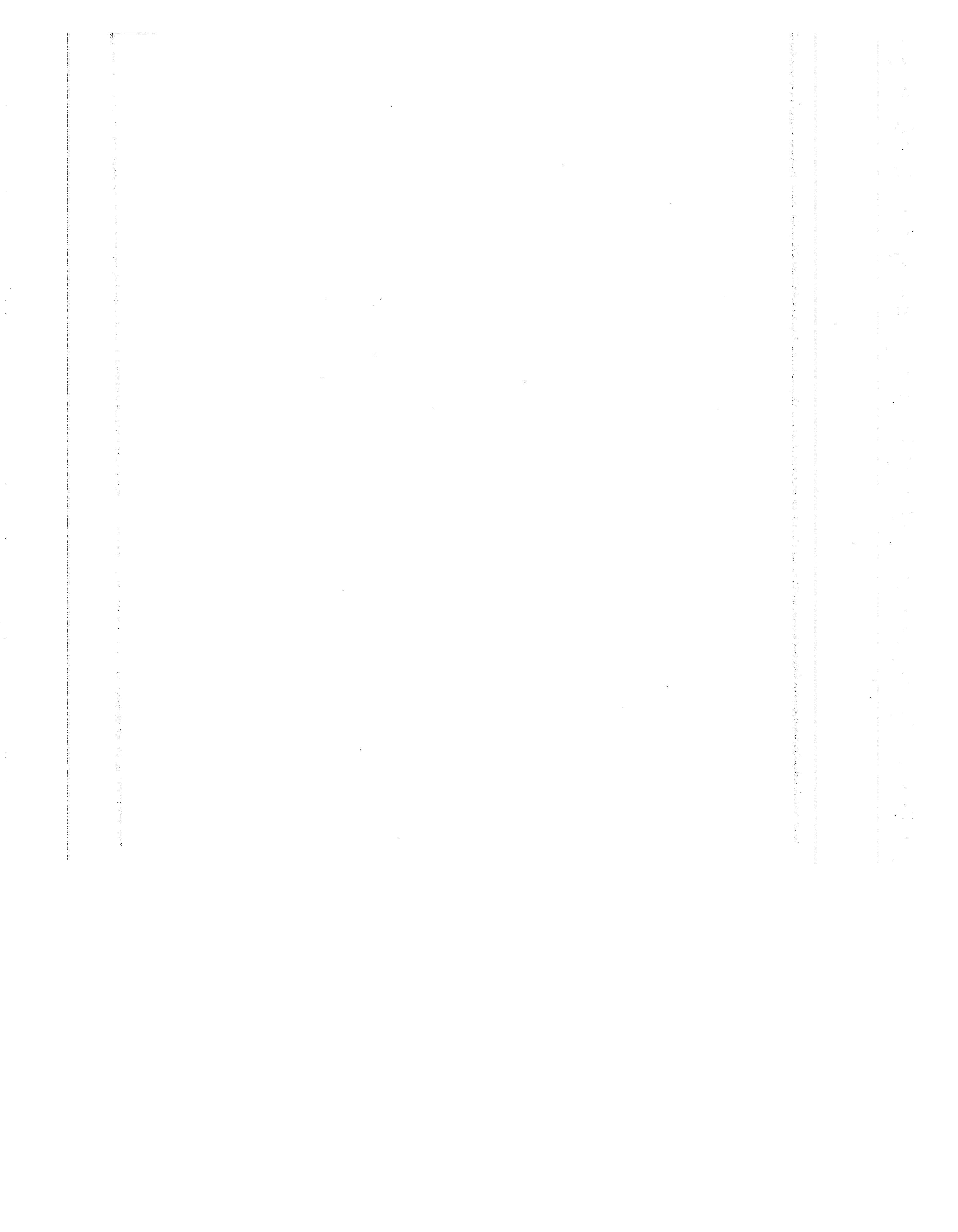
ويسلموا أيضاً بشرف هذا الدين ، مما كانوا ممنوين به أيام الأكاسرة من تكلف المهن الخسيسة : كنقل الجيف وكنس الطرق .

ثم لما كانت المجوسية والثنوية كالمتوسطة بين الخلائق ، وكان أهلها يعدون العقل الصريح أعظم الحجج ، ترجحت حالهم في مشابهة الكتابي والوثني ، فالحقوا بهؤلاء في بعض الأحكام ، وبهؤلاء في بعضها .

وإذ قد أتينا ما وعدنا به من القول في فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الرعايا فمن الواجب أن تصرف السعي إلى تبيين فضيلته بحسب الإضافة إلى الأجيال.

الفصل التاسع

القول في فضيلة الإسلام بحسب إضافته إلى الأجيال



الفصل التاسع

القول في فضيلة الإسلام بحسب إضافته إلى الأجيال

السلطان عز من الله تعالي يقلده من رآه أهلا له من عبيده، فمن عبيده، فمن قلد منهم ذلك العز فخلع ما ألبس من بهائه، ولم يجعل الحق قائماً، والعدل قاضياً ؛ فقد ضيَّع قسمته من إكرام الله تعالى .

وزيادة لساعة من عمر الإنسان إذا تحولَّ الفاجر فيها برًّا تكون معادلة للدنيا بما فيها .

والسعيد من إتباع الكثير بالقليل ، والدائم بالزائل .

***

وإذ تقرر هذا. الواجب: أن نصرف السعي إلى ما يقتضيه حكم القول فنقول:

إنَّ جنوب مشرق الأرض مسكن الصين، وشماله الترك.

وجنوب مغرب الأرض مسكن الحبش، وشماله مسكن البرابر والقبط.

وجنوب وسط الأرض مسكن الهند، وشماله مسكن الروم.

فهذه الممالك الست في أطراف العمران ، وهي مكتنفة لمملكة «إيرا نشهر» وجزيرة العرب .

فقد سعد العرب والعجم بمملكتين متوسطتين بين الممالك ، فاضلتين لها في الاعتدال . وليس يشك أنهما متى أضيفتا إلى الممالك الأخر وجدنا أضيق منها رقعة .

وأقل منها خطة ؛ فإن كل واحدة من تلك الممالك لا يوجد لها الطرف الأقصى إلا عند منقطع العمران .

غير أن ملوكها تعطى الأكاسرة في أيامهم ، والتبابعة في أيامهم ، والخلفاء في أيامهم ، الاعتراف بتفضليهم من غير منازعة فيه لهم ، وذلك لما وصفناه من مقاومة الكيفية للكمية .

وإذ كان غير مشكوك فيه فبالحرى أن يكون وصفنا لفضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى هذين الجيلين مغنيا عن الإسهاب بالإضافة إلى الأجيال الأخر، فنحن إذن جدراء بأن نصف حال هذه الملة بالإضافة إليهما ، وأن نقول :

إن الذي أوتيه هذا الدين من العلو والشرف والرفعة لو كانت فائدة من دول الزمان ، دون أن يكون قد شهد الله تعالى أنه لا يفسخ أبداً على الأيام دائما لكان لكافة أهله منقبة عظيمة ، ومفخر ظاهر .

وذلك لما خص به من الزيادة في القوة والاستظهار على الأمم ، ولعقل اليوم لعامة المنتمين إليه من الاعتداء به ، والشرف باستعلائه ، ما ينفذ لسائر أبناء الملوك وأعقاب الآجلة، وخصوصا إذ عُلم أن الخلائق مطبقة على تعظيم المتعلقين بأهله الأعزاء . فكيف وقد علم يقيناً أن كل واحد من هذين الجيلين قد فاز بالقسط الأوفى من السعادة بمكانة:

أما جيل العرب: فلأنهم كانوا قبل الإسلام في جاهلية جهلاء ، وفي ضلالة عمياء يسفكون الدماء ، ويخيفون الطرق ، وينتهبون الأموال ، ويتعاطون كبائر الآثام .

ليس لهم ملك ينظم بدوهم ، ولا سائس يقيم أدوهم ، فرزقوا رسولاً من

الله تعالى مبعوثاً بالحق والهدى. ليعلمهم الكتاب والحكمة، ويأمرهم بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويدعوهم إلى ترك العصبيَّة ، وحمية الجاهلية، فآواهم وأيدهم بنصره ، ومكنهم من الممالك ، بعد أن كانوا قنعوا من أربابها بالسلامة من سطوتهم فضلاً عن الاستيلاء على خططهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾[1] .

فأصبحوا بمكان هذه الدعوة أصنافاً ثلاثة :

صنف منهم ملوك أعزة، وولاة المنابر والأسرة، قد نفذ حكمهم على الأقربين والأبعدين، لتحصيلهم الرياسة في الدين، وتوسعهم في معرفة أحكامه، والنفقة في حلاله وحرامه، فسعدوا بأشراف حظوة، وأجل أكرومة.

وصنف منهم توجهوا إلى الآفاق في المغازى . فسهّل الله لهم فتح البلاد ، وذلك لهم رقاب العباد ، فتقابلوا في النواحي التي فتحت لهم ، وحازوا فيها نعماً جسيمة وأملاكاً عريضة ، بعد أن كانوا ممنوين في جاهليتهم بضيق الحال، وضنك العيش .

وصنف منهم — وهم الجمهور من أفناء العرب، المقيمون في ديارهم — قد اقتنعوا بالنسبة الجنسية التي بينهم وبين صاحب الدعوة شرفاً لا يجهل أن يقال لهذا الدين في رفعته وجلاله: ((دين العرب)): ويقال لهذا الملك في اتساع رقعته، وعلوّ مكانه: ((ملك العرب)).

فهذه هي مجامع ما سعد به جيل العرب في أيام هذا الدين.

* * *

(١) سورة الأنفال الآية رقم (٢٦).

وأما العجم فإنهم – مع ما كانوا رزقوا في أيام الأكاسرة من الأبنيات الحميدة والآداب المنقولة، والعناية الصادقة يحفظ رسوم العمارة ابتلوا بمحنتين عظيمتين لا يدانيهما شيء من المحن الدنيوية في الفظاعة والنُّكر:

إحداهما : عوق الموابذة لدهائهم – بالقهر – عن اقتناء الحكمة الإلهية ، التى بها يتوصل إلى كمال الإنسانية ، وباقتنائها تستحق الرتبة الروحانية.

وكان سببه أن زرادشت المتنبى لما أسس لهم فى الأبواب الاعتقادية تلك الأصول الدالة على نزارة حظه من الحكمة النظرية: نحو كون العالم من قديمين، وحصول جبلته من امتزاج الضدين وأنواع هذيانه فى العفاريت والشياطين، وخطئه الفاحش فى كل الأرض وتخطيط الأفلاك.

صيّرهم بالمأخذ التقليدي مزجورين عن الحكمة الإلهية، تحرزًا من أن يتنبه الناظر فيها، والمتحقق لبراهينها، على سخافة دعاوية. فابتلى ألباء العجم لمكان الدعوة المجوسية – مع أفهامها الزكية، وعقولهم السرية – بالمنع القادح عن أشرف أبواب الحكمة، بل ثكلوا روح اليقين بالحقائق البرهانية.

والأخرى: أن طبقاتهم بأسرهم كانوا مضطهدين بسياسة الاستعباد وإبالة الاستخوال. إذ كان ملوكهم وسموا أنفسهم بسمة «الخذ ايكانية»[1] ، وسموا كافة من سواهم بسمة «الدهكانية» .

وليس بشك أن تسخير العاقل الحر بالقهر والغلبة على المنزلة الواحدة ، وزجره عن اكتساب المحامد بالمهمة العلية، والتمنى باجتهاد سعيه إلى ما يتمناه من الجاه والمعلوة – فى الغاية فى الاتّضاح والخسة ، وهى النهاية فى الاستسلام للفضاضة .

(١) الخذ إيكانية: كلمة فارسية. معناها: السيد والكبير.

وإذ وجدت المحنتان مطبقتين على العجم:

إحداهما من جهة ملوكهم ، والأخرى من جهة موابذتهم — فمن الواجب أن نعلم أن مجيء الإسلام قد أفادهم بشرفة واستعلاء مكانه عوائد ثلاثة :

إحداهما: إفادة السلامة عن التسخير للعبودية ، وإزالة الحجر عنهم في التطلب للرفعة وإذ قيل لهم: ((إن الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب)) و ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) ، ((المسلمون تتكافأ وماؤهم ، ويسعى بذمّهم أدناهم، وهم يد على من سواهم)) .

والثانية: الهداية للحكمة الإلهية، وتحقيق مبادئها بالأدلة، ليقتنوا باقتباسها والتوسع فى معالمها فضيلة روحانية ، وغبطة نفسانية ، فتجل بها مراتبهم عند الخلق ويبقى لهم الذكر فى العواقب .

والثالثة: فتح الطريق لهم إلى التفيؤ بظل هذه الدولة الميمونة، وقصد الأمم المصاقبة لهم باستخلاصها على شرائط الجهاد، ليعمروا بلادهم بما يفيدونه من الفيء،

وينقلوا ذراريهم إلى أكناف ديارهم، فيأخذونهم بالآداب الحسنة، ويروضونهم على الأخلاق الحميدة.

حتى إذا استحكمت دربتهم فيها ن واستولت مرّاتهم عليها، منوا عليهم بالاعتناق، وأكرموهم بالإفضال. فيصيرون بذلك قائلين على الدّوم: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

(١) سورة الحشر الآية رقم (١٠).

وهذه هى عوائد جيل العجم فى أيام هذا الدين .

وإذ قد أتينا على ما وعدناه من القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى الأجيال فمن الواجب أن نصرف السعى إلى تبيين فضيلته بحسب الإضافة إلى المعارف .

الفصل العاشر

القول في فضيلة الإسلام بإضافته إلى المعارف



الفصل العاشر

القول فى فضيلة الإسلام بإضافته إلى المعارف

الكلام الصحيح منه تحقيقه ، ومعه تصديقه ؛ والكذوب بذات فمه يفتضح وأحق الناس بالرحمة العاقل إذا تسلّط عليه الجاهل .

وشدة الفحص براءة من الخديعة.

والجهل مع العفة خير من الحكمة مع الفواحش.

ومخافة العاقل لذم العلماء إياه تكون أشدَّ من مخافته لعقوبة السلطان وموعظة. وإن قلت فهي أدب عظيم.

* * *

وإذ تقرر هذا فمن الواجب أن نعود إلى ما هو الغرض من القول فنقول: إن التَّقوية لأسباب الدين والدعاء إليه قد تكون باليد ، وقد تكون باللسان إلا أن الحاجة إلى تأييده بقوة اللسان تكون أمس منه إلى تأييده بقوة اليد ،

بل لا يستعان باليد فى إقامة الدعوة إلا بعد المبالغة فى الإعذار والإنذار ، وبعد البأس من تأثير الهداية والإرشاد .

وبه يخالف حكم حال المتدينين حكم حال البغاة والمتغلبين.

على أنه أمر يلزم الإنسان أن يستعمله مع نفسه. كما يستعمله مع غيره فإن الاجتهاد فى حماية الاعتقاد بإدمان مناظرة النفس وتفقد ما يجوز وقوعه من أبواب الشبه ، ووجوه الريب ، ومعارضة الخواطر المعترية ،

وكثرة الدربة فيها عند الوجوه ، ليتدرب فيما يستعمله مع الخصم ، ويستدرك يدربته الاستبصار فى الدين ، ويأمن حيل المستغوي قبل أن ينبري لمجادلته – أمر لا يجوز إغفاله؛ فإن مكايدة المحتال من طريق التمويه باللسان تكون أنكى من مكايدة المغتال من طريق السيف والسنّان

وكيف لا تكون كذلك وهى مكايدة روحانية ، وهذه مكايدة جسمانية ؟!

وإذ عرف هذا؛ ثم إن العلوم كلها تنقسم إلى الملية والحكمية، وإن صناعة الأدب تنزل منزلة الأداة للعلوم الملية، وصناعة المنطق تنزل منزلة الأداة للعلوم الحكمية،

وبينا أغراض كل واحد من الأبواب الثمانية، وما يتعلق بكل واحد منها من الجدوى والمرفق.

فمن الواجب إذن أن نعلم أنه ليس لشيء من أصناف الديانات حظوة من هذه الصناعة مثل حظوة الإسلاميين:

فإن أحكام اليهود مقصورة على ما هو مسطَّر فى التوراة .

وللنصارى كتاب يسمونه «سنهودس»[1] يتضمن سنن البيعة وغيرها .

وللمجوس كتاب يعرف بـ«أبستا» وقد فسِّر بكتابين آخرين يعرفان بـ«زند» و «بازند» . وهى متضمنة ذكر مصالح عيشهم.

إلا أن العادة بتفريع المسائل الحادثة معدومة فيهم ؛ فإن أديانهم محمولة على التقليد المحض، وأبواب النظر محظور عليهم ، وليس لهم أن يتجاوزوا المنصوص فى الاستنباط .

---

(١) سنهودس: المجامع المقدسة.

ولعمرى إن للثنوية كتبا حكوا فيها مذاهبهم، وكشفوا بزعمهم عن عوار مذهب غيرهم. غير أن كلامهم ليس على وزن كلام الحذاق من متكلمي هذه الأمة، فى حكاية مقالات الفرق على استقصائها، والتحقق للحجج، وما يقابلون به منها.

فأما الإسلاميون فإن حملة الآثار منهم قد تتبعوا أخبار رسول الله ﷺ وأخبار صحابته ، والتابعين لهم ، تتبع الضّنين بها، والمشفق على فوات شيء منها ؛ فعرفوا كافة النقلة بأساميهم وكنايتهم وأنسابهم ، ومدد أعمارهم ، وتأريخات أزمنهم ، ووقت وفاة كل واحد منهم ، وعدد من خدمه وصحبه وحمل عنه ، ومقدار ما روى من حديثه .

وبمثله المتكلمون جروا فى صناعتهم على نهج المحدثين فى نهج البحث عن الأصول الاعتقادية: كالقول فى إثبات الصانع جل جلاله، والقول فى وحدانيته، وتقرير صفاته الذاتية وصفاته الفعلية ، وإثبات النبوة ووجوبها ، وشرح الخواص المقترنة بها ، وتحقيق الشرائط فى التعرف لصحتها ، وغير ذلك من الأبواب المشهورة.

فلم يدعوا مقالة فيها تعرف إلى صنف من الأصناف إلا خلصوا إلى معرفتها بهيئة دعواها ، وما اعتل به أهلها ، ثم تجاوزوا الجليل الواضح من أبواب الكلام إلى اللطيف الغامض منها:

كالقول فى الجوهر والعرض ، والجزء والطفرة والتواتر ، والاكتساب والذرات والمعانى والأسماء والأحكام والفعل والاستطاعة وغيرها من الأبواب التى تنشحذ بها الأذهان وتتيقظ لها الأفهام .

وبمثله الفقهاء فى تتبعهم لوجوه الأحكام ، وخوضهم فى دقائق الفتاوى ،

واستنباطهم للطائف التفريعات ؛ بحيث قد أراحوا المتأخرين من ذوى العناية بها مؤونة البحث والتنقير ، وحلَّوا صناعتهم مع اختلافهم فيها بصائب التفكير .

وبمثلهم الأدباء فى تجريدهم الهمة لتحقيق ما يتعلق بصناعة النحو ، وصناعة العروض وصناعة التصريف ، وصناعة التقّفية ، وبلوغهم فيها مبلغا ملأوا بها الدفاتر والقماطر وعمروا بالمفاوض مجالس الأنس والتذاكر .

ثم وجدنا الألباء من أهل الإسلام قد سعدوا مع ذلك – بحسن توفيق الله تعالى – لنقل الكتب المنسوبة إلى ذوى الشهرة من حكماء الروم ، وحكماء الفرس ، وحكماء الهند ، وحكماء يونان ، واستقصوا تأمل معانيها ، وحلوا مواقع الشبهة منها.

وتولوا شرحها وإذاعتها ، وتأدبوا فى أبوابها بكمال تأديب الله تعالى جده بقوله جل اسمه: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[1] . واستعملوا فى معانيها قول الرسول عليه الصلاة والسلام «العلم كثير ؛ فخذوا من كل شيء أحسنه» .

ولو أنه كان لأهل الأديان مثل هذه السعة فى المعارف ، والبسطة فى المعالم، لوجدت كتبهم مبرزة فى أيديهم ، ولما خفى خبرها على المتعرفين لأحوالها ، ولما جهل مخالفوها أسماءها ، اشتملت عليه من مضمونها ، كما لم يجهلوا المنقول منها إلى الفارسية والسريانية .

(١) سورة الزمر الآية رقم (١٧).

وليس لقائل أن يقول: إن الأكثرين من المترجمين كانوا يتدينون بالنصرانية وبالصباوة – فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لما شاهدوا من قوة الإسلام وشرفه ، وما كان قصدهم إلا التقرب إلى الخلفاء الضابطين لعرى الإسلام وقواعده .

وإذ قد أتينا على ما وعدناه من القول فى فضيلة الإسلام بحسب الإضافة إلى المعارف – فمن الواجب أن نذكر جمل ما يتسلق به الطاعنون على الإسلام من شبههم القوية ، ونصرف السعى إلى حلها.

فإن العاقل لن يقنعه الوقوف على المعانى القوية للشيء ما لم يتحقق ما هى المعاني المعاندة له.

القول في الشبهات التي يتسلق بها المعاند للإسلام

بالبحث تستخرج دفائن العلوم.

ولولا الخطأ لما أشرف نور الصواب.

ولا فرق بين إنسان يقلد وبهيمة تنقاد.

وفساد الدين في ثلاثة: زَلَّة العلماء، وميل الحكماء، وتأويل الرؤساء.

ومن لم يكن معه عقل مرصوص، لم ينتفع بالحديث المقصوص.

***

وإذ تقرر هذا. فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من الذكر فنقول:

إن الشبه التي يتسلق بها الطاعنون على دين الإسلام والملة الحنيفية وإن كانت مربية على العد والإحصاء، فإن الذي يوجد لها تأثير في الأوهام، ورواج على الضَّعفة من العوام، بالغ في العدد أربعة.

ومتى تمكن العاقل من حلها، وتحقيق مواقع التدليس فيها، لم يبق له فيما سواها من زبرج أقوال المتطرفين، وزخارف تمويهات المعنتين، قوة يخشى بها الرواج عليها:

إحداها قولهم: إن الإسلام لو كان دين الحق لكان دين الرحمة، ولو كان دين الرحمة: لما كان الداعي إليه مقدماً على الخلق بالسَّيف، ومتعسفاً في أملاكهم بالسلب، ومسترقاً لذراريهم بالسبي.

ولكان لهم في الدعاء إليه باللسان ، والإرشاد له بقوة التبيان ، غنية عن

الأفعال المضاهية لفعل المنافس في النعم ، والمتغلب على القسم .

والثانية: قولهم : كيف نتوهم أن دين الإسلام حق عند الله ، مع ما نشاهد عليه أهله من التضاغن والتعادي، وتشتت الأهواء، وافتراق الكلمة، وتماديهم في ذلك الشأن.

((حتى)) أفضت بهم الحال إلى جرأة بعضهم على سفك دماء البعض، وإقدام بعضهم على ذبح أطفال البعض، وما يتأذون به من استشعار الضغينة للاختلاف في العقيدة.

إلى أن تصير كل فرقة منهم خائفة من عدوان صاحبتها ما لا تخافه من سطوة العدو المحنق ، المضمر الذحل .

والثالثة: قولهم: إن عماد الإسلام في تقوية قواعده بالحجج هو ما أشار إليه عامة من دعي إلى قبوله ، فقيل لهم :﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[1]. ثم وجدنا القرآن من فرط البعد عن البيان الشافي، وضعف الإقناع بالبرهان الكاف، بحيث وجدت الفرق بأسرها – مع تباعدهم في العقيدة – محتجة بألفاظه، ومسندة دعواها إلى ظواهر فحواها.

فإذا كان عماد الإسلام في باب الحجاج هو هذا المشار إليه، ثم كانت صورته من ضعف الهداية هذه الصورة، فمن أين يستجير العاقل بت القضية بأنه أفضل الأديان وأسدها؟

والرابعة: قولهم: إنا وجدنا صاحب دعوة الإسلام مدعيا صدق خبره،

(١) سورة العنكبوت الآية رقم (٥١).

وصحة ما حكته من أمره ، بأن شهدت له الكتب المنزلة قبله ؛ إذ قد تلا في كتابه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[1] .

ثم أرباب الكتب السالفة يهتفون بأن البشارة به غير موجودة فيها ، وإلاَّ فدلونا من أسفارنا عليها .

وإن أدعيتم عليهم الكتمان والتحريف ، فواعجباً من أمم تفرَّقوا في البلاد ، وأشاعوا في خاصّها وعامّها أجل نبأ يتوقع حدوثه ، وصار كل واحد منهم منتظراً له ، ومبتهلاً إلى الله تعالي في أن يدنيه ؛ حتى إذا هجم زمانه ، وظهر مصداقه ، أعرضوا بجملتهم عنه ، وتطابقوا على كتمانه . فإن كان هذا أمراً ممكناً فما يؤمنكم وقوع مثله في بعض سور القرآن ؟ . قالوا : وإذا كانت السالفة خِلواً من هذه البشارة ، فأقل حاله فيما نحلها من الإفص[illegible] أن يكون متقولاً عليها ، فتسقط درجته عن أن يرتضي للشهادة ، فضلاً عن أن يؤتمن للنبوة .

فهذه هي المطاعن القوية التي يتسلق بها المعنتون عند قصدهم توجيه الزراية على الملة الحنيفية.

وإذ قد ذكرناها على إشباع من البيان ، فمن الواجب أن نتشمر لحلها ، وكشف مواقع التلبيس فيها .

❊ ❊ ❊

(١) سورة يونس الآية رقم (٩٤).

القول في حل الشبهة الأولى

الملك بالدين يبقى، والدين بالملك يقوى.

وموارد الأمور تشتبه، وفي مصادرها يتضح اليقين.

وإذا ضعف السلطان، قوى الشيطان.

ولا يسلم على الناس أحد، ولم يجتمعوا في الرضا على بشر.

وطهارة النفس تعد غبطة دائمة.

وما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل ، إذا لم يصدئها الهوى .

وإذا تقرر هذا فنقول:

إنّ استعمال السيف والسوط قد يقع على صورة الجهاد، فيصير محمدةً لصاحبه، ورحمة للعالمين. وقد يقع على صورة الفتنة والتصعلك، فيصير مذمة لصاحبه، ومحنة على العالمين.

وإذ كان هذا غير مشكوك. فيه فنحن إذن جدراء بأن نتعرف حال الداعي إلى الإسلام – عليه الصلاة والسلام:

أكان استعماله للسيف على الخليقة متعلقا بمصلحة عامة. أو مرتبطا بمفسدة شاملة؟ وأن نتعرف أحواله فيه:

هل كانت مقترنة بالهداية والإرشاد، أو كانت دالة على التخبط والاستفساد؟

فاستقصينا تتبع ذلك، فوجدناه مفتتحًا – أمام مناوشاته – إظهار دعوة مخالفة لأهل الأرض؟ وهو عارف بضعف حاله ، ونظارة قدره ، وموقن أنه لا

عداوة في الخلق، أشد من عداوة الدين، وأنه قد انتصب به لمناوأة العالم: ملوكه وسوقته، من غير أن يوجد معه مال ممدود، وأعوان شهود.

وأنه ليس يصانع أحداً يتمكن مما يوافق هواه، بل يدعوهم كلهم إلى ارتفاض الشهوات، والإمساك عن اللذات، وهجر الأملاك والأوطان، وتوديع الأهل والولدان، يطابقونه عليها، بل يعرضون على تركها... المال الجم ، والرياسة المعقودة ، وهو غير ملتفت إليها ، بل صابر على ما يناله في حالة ضنكه وفاقته، ملازما لقوله: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] ثلاث عشرة سنة ، فيدوم على تلك الوتيرة الصادقة ، من غير أن يزن بتهمة ، أو يعثر منه على موقع غميزة .

فمتى يتسع في الطبع البشري أفترى لولا ثقته بأن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا أن يطمع – مع حالته تلك – في تتمه ما أقدم عليه من الأمر الجسيم، والخطب العظيم ؟!

كلا ! إن غرضه في استلال السيف على من ناوأه لم يكن إزالة نعيمهم ، ولا انتهاب قنيتهم ، بل لو قدر على استصلاح عباد الله – تعالى جده – من غير حاجه إلى سفك دماء بعضهم لكان ذلك هو الأثر عنده ، والأحب لديه، لكنه – لفرط إصرارهم على عناد من ترددت نعمه عليهم ، وتظاهرن منه لديهم؛ لصرفهم إياها إلى عبادة الشيطان، ومقابلة مولاهم بالغموض – أحوج إلى أن يذهب معهم في إعمال السيف عليهم سائس أشفق على رعيته من عادية الخباث،

(١) سورة يوسف الآية رقم (١٠٨).

وحاول ردعهم عما انهمكوا فيه من أبواب العبث، فلم يجد إليه سبيلا إلاَّ بإهلاك الأفراد.

ومعلوم أن ذلك لن يكون منه قساوة، بل يكون مأثرة ورحمة.

وليس لمعارض أن يعارضنا بكشف جنده في وقعة أحد، وكبوة لحقت عسكره في وقعة مؤتة.

فإنَّا نقول : الأنبياء – صلوات الله عليهم – ينكبون في محاربتهم ، وقد يدال عليهم أعداؤهم ، وإن وعد لهم الغلبة والنصر؛ أعنى بقوله – عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾[1]. وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]. وكل من سعد بصلاح العواقب فقد اغتفر له سوالف المكاره.

وكما أن قادة الجيوش ليسوا ينفكون في حروبهم من جولات وكشفات. إلا أنهم متى أصابوا نجح العاقبة صارت المكاره عندهم غير محفول بها.

وكذا الحال للأنبياء – عليهم السلام – حذوا النعل بالنعل ، والقذة بالقذة .

* * *

(١) سورة الصافات الآية رقم (١٧٢).

(٢) سورة هود الآية رقم (٤٩).

القول في حل الشبهة الثانية

إن الحق لا ينقلب باطلاً لاختلاف الناس فيه، ولا الباطل يصير حقا لاتفاق الناس عليه.

وليس في وسع الحق قهر الأنفس على الإقرار به ، وتسخيرها للاعتراف بصدقه، لكنه شيء محقق بنور العقل بعد الرؤية والبحث فيظهر الحق ، ويمتاز به عن المبطل .

وسلامة الإنسان عن الخطأ رأساً ليس بمطوع فيه ، ولكن الطمع في أن يكثر صوابه .

والقينة العقلية متى كانت نفيسة كثر الحساد عليها، وانبعثوا لإيقاع التلبيس فيها. وبحسب ذلك تختلط الأمور، وتصير عرضة للاختلاف:

والاختلاف داعية إلى المماراة.

والمماراة فاتحة للتعادي.

والتعادى سلم إلى العصبية:

والعصبية هي الداء العضال؛ التي تستخف الأحلام الراجحة، وتستأصل النعم المتأثلة.

وإذ عرف هذا؛ فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من القول فنقول:

إن دين الإسلام لما كان ناسخاً للأديان كلها، وكان ملكه قادحاً في الرياسات بأسرها، وقد امتلأت القلوب غيظا عليه؛ لهدمه كراسي علماء الكتابيين ، وطيه مقاعد الملوك والسلاطين ، ثم كان مع ذلك في غاية الحسن ،

ونهاية الأنق فغير بعيد أن يكثر عدوه ، وتزدحم التخاليط عليه .

ونحن جدراء بأن نذكر الجهات التى بحسبها تتولد الاختلافات في بناب الديانات، وإن كانت موافقة للحق، فنقول:

إن عامتها تفتن إلى جهات أربعة:

إحداها: أن يعجب المتدين بعقله، ويغتر بذكائه، فيركب نوعاً من المقاييس الفاسدة، قبل إحكام المعرفة بمقدماته، فينتج نتيجة كاذبة، وهو يخالها صادقة، فيعتقدها دينا، ويدعو الناس إليه جهلا، فتعم البلوى به، وتغوى بمكانة الخليقة.

والثانية: أن يولع الإنسان من نفسه بالإغراب والتعمق، ويستهتر ويقوم باستثارة معنى بديع لم تنتجه له خواطر الناس ، وقلما يبالى تنكب الجادة ، شغفاً بأن يسلك طريقة يصير فيها قدوة ، أو يثير نادرة يحكم له بإصابتها على بعد الغور ولطف الروية ، فيوّطد به لنفسه الذكر والسمعة .

والثالثة : أن يكون قصد الإنسان عناد جميع ما يسمع من الأقوال الصادقة؛ والمذاهب الحقيقية ، وَأن يَّتبع أبداً الآراء المسترذلة التي تنخدع بها طبقات العامة ؛ إذ ليس شيء عند الدهماء أروج من المذهب المستضعف ، والرأي المدخول .

والرابعة : أن يتعمد تزييف الدين ، وتوهين أساسه : إما لتعصب ملكي ، أو لتعصب نسبيٍّ ، أو لسوس الخلاعة ، أو لإيثار طرق المجانة. فهو يجتهد في إلصاق المعايب به بأخبار مزوَّرة، وينسبها إلى أئمة أصحاب الحديث ، أو إلى أحد رؤساء العامة ، فيوهم الضعفة من أهله أنها أساس الملة ، احتيالاً منه

للنكاية فيما أبغضه وأحب الانتقام منه .

فهذه هي الطرق للآفات المتواترة على الأديان والملل ، وليست هي المقصورة على دين الإسلام ، بل هي مشتملة على جميعها .

فأما حيل المخلصين في ترويج ما يحاولونه من أوجه الضلال على أربابها فهي مفتنة إلى شعب ثلاث :

إحداها : أن يبذل له الإقرار أولاً بالأصل ، ليستدرجه بذلك إلى مكان الاغتيال ثم يأخذ معه في تمويهات يخيله بها بهرجة ما استند إليه ، فيستذله بمكانها عما استمسك بعراه من قواعد دينه :

كالذي تفعله الثنوية في إيهامهم للناس مطابقتهم استحسان سير الأنفس الرحيمة .

واستقباح سوس الأفئدة القاسية ، ليتدرَّجوا به إلى تقبيح إيصال الألم إلى الحيوان، فينفق ذلك على المريض الذي لا يفرق بين ما ينفر عنه الطبع ، وبين ما ينفر عنه العقل .

حتى إذا رأى استحكام ذلك في عقيدته صيَّره مطية إلى قانونه من خدش وجوه الأديان الإلهية ، ويستجره بذلك إلى أنواع غوايته : في كون العالم من أصلين ، وتولده من امتزاج القديمين .

وبمثله الحال في العاقبة عند إيهامهم للأغبياء محبة آل الرسول عليه الصلاة والسلام .

والثانية : أن يأخذ في شرح ما أحب ترويجه عليه بعبارات أنيقة ، وألفاظ شهية ؛ وإشباع في الوصف ، وإقناع بجودة الوصف والتلفيق للمعاني ، والتجويد للأداء.

صنع صاحب السلعة المغشوشة عند عرضة إياها على من لا بصر لـه فيهـا ، ليحسنها في عينه ، ويحببها إلى نفسه .

ولا كذلك صاحب الدين الصادق ، والمذهب الحق ، إلاّ أحـد مـن صـحح نيته في ابتغائه المثوبة وطلبه الأجر .

والثالثة : أن يعزو المذهب الذي يدعوه إليه رجل جليل القدر ، مثل علماء الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحكماء الفلاسفة ، أو عقلاء أهل زمانه :

من وزير ملك ، أو أديب مبرز ، فيسمع هذا المغفل المريض قوله إياه فيحسن به الظن ويرضاه إماماً لنفسه ، ذهاباً منه إلى أنه ، مع جودة فطنته — ما كان ليختاره لولا أنه هو الأصوب في ذاته .

ثم لكل من هذه الأبواب الزائغة عن الحجة أهل يناسبونه، وقوم يلتقطونه فتراهم يتسارعون بغرائزهم المختلفة إلى قبوله، فيزداد على الأيام عددهم ويتضاعف عليها مددهم، فيصير بعد المدة السيرة نحلة يحامى دونها بالسيف.

وهذه آفة يبتلى بها أهل كل ملة؛ وليس لأحد من أربابها أن يسلب الإسلام نسبتها.

* * *

القول في حل الشبهة الثالثة

العقول في أنفسها متفاضلة ؛ وللأفهام في ذواتها مراتب .

ومن المعقولات ما يكون استثباته قريبا ، ومنها ما يكون عن فكر الحق به نائيا وبين الناس وسائط كثيرة.

وليس على ناظم الكلام تقريبه من جياد الأفهام وعليلها: بل عليه أن يخلص إلى المعاني قصدها بأسهل وجوه اللفظ ، ثم من فهمه كان ذلك فضيلة له ، ومن قصّر عنه كان ذلك نقيضه فيه .

وكل من تدبر كلاما صنعه غيره ، إما في العلوم الملية أو في العلوم الحكمية لم يسلم من الشك في بعض معانيه .

وفحولة الشعراء لم يقولوا ما قالوا من أشعارهم على شريطة أن يفهم عنهم كل سامع، بل قالوه على شاكلة ما كانوا أوتوه من الفصاحة.

وهكذا حال الخطيب، إذا انتدب لاستلال السخائم، وإصلاح ذات البين.

وبمثله حال الكاتب في توفية ما ينشئه من الرسائل تمام حقه من حكم البلاغة.

وإذ تقرر هذا: فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من القول فنقول:

إن الأوجه التي لأجلها يقع الغرض في الكلام المنظوم تنقسم إلى شعب ثلاث:

أحدها: أن يكون مخرجه على سبيل الرمز والألغاز دون التصريح والإفصاح.

والثاني: أن يكون مبنياً على الإجمال والإيجاز؛ أعنى أن يودع الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ.

والثالث: أن يكون معناه إما دقيقاً في نفسه، وإما محوجاً إلى التحقيق بمقدمات قبله وليس يشك أن أهل المعرفة بالألفاظ يفهمون من فضيلة البيان ما لا يفهم أهل المعرفة بالمعاني، والعلماء بالمعاني يعقلون منها ما لا يعقله العلماء بالألفاظ.

وإذ كان هذا غير مدفوع عند ذوى الألباب، فبالحرىّ أن يسهل علينا حل الشبهة، وأن نعلم أن القرآن يشتمل على الأوجه الثلاثة التي أومأنا إليها:

فإن الأول منها بعد في الآيات المتضمنة لأنباء الغيب مثل: ﴿ دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ .

وشأن عيسى ، وفتح يأجوج ومأجوج. وما شاكلها من أعلام القيامة.

والثاني: ما يقع منها في الآيات المتضمنة لشرائع الدين وأحكامه: كالأوضاع العبادية، والأوضاع المعاملية، والأوضاع الزجرية، فإنها مجامع كلية تولى تباينها الرسول عليه الصلاة والصلاة: إما بأقواله وإما بأفعاله.

والثالث منها: ما يقع في الآيات المتضمنة للحجج المحققة للمعاني الاعتقادية، نحو: إثبات الصانع – جل جلاله – وإثبات وحدانيته، ثم إثبات الرسل عليهم السلام، وإثبات المعاد. وما فيه من العقاب والثواب.

وإذ كان القرآن منتظماً للأوجه الثلاثة، التي بها تصير الألفاظ المؤلفة معرضة للظنون المختلفة، فلا غرو أن يكثر الاختلاف فيه، وتزدحم الشبه في معانيه.

فأما ما ادعاه المعتتون من قصوره عن البيان الشافي فهو دعوى بهرج: فإن الذين خوطبوا به في زمن النبي – عليه الصلاة والسلام – كانوا هم الأئمة في الفصاحة، وقدوة جزيرة العرب في البلاغة.

ولم ينسبه أحد منهم إلى عدم فضيلة البيان، ولا تجاسر على إضافته إلى الهجنة في النظم. بل شهد له أهل المعرفة بالألفاظ أنه يفضل الكتب كلها من جهة تبيانه، وشهد له أهل المعرفة بالمعاني أنه يفضل الكتب كلها من جهة معانيه.

فأما الإحاطة بما تضمنه القرآن من خاص فوائده على الحقيقة فهي مما لن يكمل العقل البشرى له إلا بتقدمه في معرفة شرائط التفسير، وقد استقصينا ذكرها في كتابنا الملقب بـ«الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد».

***

القول في حل الشبهة الرابعة

أعون الأشياء على تذكية العقل الخضوع للتعلم، فإذا استبد الإنسان برأيه عميت عليه المراشد.

وللحكمة إظهار وزمان كتمان، فلا يصلح زمان الكتمان لإظهارها، ولا زمان الإظهار لكتمانها. وهي تنقص أهلها في غير حينها، كما تزيدهم في حينها، وتضعهم عند غير المستحقين لها، كما ترفعهم عند المستحقين لها.

ومتى أعانت الفضيلة صاحبها فالحكمة تكسبه الخلق المحمود، وحسن المعيشة وإكرام النفس.

ومتى لحقت الرذيلة صاحبها فالحكمة تصير له قوة على المعصية، وفسادًا للمعيشة ووبالاً في العاقبة.

* * *

وإذ تقرر هذا فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من القول فنقول:

إن بشارة الكتب السالفة بالنبي الأمي تكون برهاناً من براهينه، وذلك لتعلقه بعلم الغيب، الذي أخبر الله تعالى بأنه لا يظهر عليه أحداً، ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[1] .

ولن يجوز أن تكون ألفاظ البشارة به واقعة فيها على التصريح والإفصاح؛ لأنها لو وقعت على ذلك لما تبين عند ظهوره منزلة العاقل من الغبيّ، ودرجة

(١) سورة الجن الآية رقم (٢٦).

المجتهد من المقصر. وليس يشك أنها متى وقعت مرموزة فهي لا محالة تصير معرضة للتأويلات، وكل قول كان عرضة لها. فإن مسلك التلبيس فيه، وإيراد اللبس عليه لن يكون شاقا على الخب الفطن.

ونحن نعلم أن الأحبار والرهابين كانوا سعدوا بالترؤس في الدين، واغتبطوا بما أفادوه من الحظوة عند العالمين. ولم يكن قد خفي عليهم أنهم مهما اتّبعوا الرسول المبعوث فقد اضطرهم الأمر إلى تكليف السعي الجديد لاقتباس المعرفة بشرائعه وأحكامه.

وأنهم سيصيرون في تعلمها ذنبا لا رأسا، وتلك مشقة لا تسمح لها النفوس بالهويني؛ فإن استبقاء الكراسي المحصّلة واستدامة الرياسات المؤثلة، بما يحرص عليه، وتحريف الألفاظ المرموزة بالتأويلات الفاسدة يكون أهون منه بكثير. فمن هذا الوجه ما تأتّى لهم كتمان خبره، وإخفاء نبثه.

على أنّا لا نصدق بهذا القول إلا أن نأتي بشهادة الألفاظ المسطَّرة في كتبهم وخصوصاً الكتابان اللذان أشار إليهما القرآن بقوله – عزّ وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[1] .

فنحن إذا جدراء بأن نصرف السعي إليه، ونحل الشبهة بذكره؛ فنقول:

إنّا وجدنا في السفر الخامس في التوراة، في الفصل الحادي عشر منه، قول الله تعالى لموسى: «إني أقيم لكم نبيا من أنفسكم، ومن إخوتكم، وأيما رجل لم

(١) سورة الأعراف الآية رقم (١٥٧).

يسمع لما يؤديه ذلك النبي انتقمت منه)).

ثم في هذا الفصل بعينه: ((إن الربَّ إلهك مقيم من بنيك ومن نفس إخوتهم بنيا مثلك، فاسمعوا له وأطيعوا)).

ثم في هذا السفر في الفصل العشرين منه: ((إن الربَّ جاء من طور سينين، وطلع لنا من ساعير، وظهر من جبال فاران، وعن يمينه ربوات من القدسيين، فمنحهم القوة، ودعا بجميع قدِّيسيه بالبركة)).

ثم وجدنا في الإنجيل المنسوب إلى يوحنا في الفصل الخامس عشر منه: ((إن فارقليط روح الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء)) .

فهذه هي ألفاظ البشارة من هذين الكتابين، وقد نقلت إلى اللسان العربي من اللسان السرياني، وليس يجحدها من أهل المعرفة بالكتابين. ومن الواجب أن نوضح مواقع الأدلة منها على صحة نبوة محمد ﷺ فنقول:

أما ألفاظ التوراة ففيها أربعة نعوت، متى جمع بينها وضح أنها بشارة به دون غيره:

أولها: أن المبشر به من إخوة بني إسرائيل.

والثاني: أنه مثل لموسى عليه السلام.

والثالث: أن من لم يؤمن به انتقم منه.

والرابع: أنه يبعث من جبل فاران.

فأما النعت الأول: فلأن إخوة بني إسرائيل هم أولاد إسماعيل، ولم يبعث منهم نبي سواه.

وفيه تصديق لما في السِّفر الأول في الفصل العاشر منه: أن الله تعالى قال لإبراهيم: ((قد أجبت دعاك في إسماعيل أيضا، وباركت عليه، وكبرته وعظمته جداً جداً ، وسيلد أثنى عشر عظيما ، وأجعله لأمة عظيمة)).

ولولا مكان هذه النبوة، وهذا الملك لبطلت البشارة.

وأما النعت الثاني: فلأن حال موسى في ولد إسحاق كانت مضاهية لحال محمد ﷺ في ولد إسماعيل، فإن إسحاق كانوا متبددين في بلاد مصر: عبيد ملوكها، وسخرة أربابها، لا يوجد لهم شمل منتظم، ولا شعب ملتئم، فأورث الله ﴿ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾.

وهكذا حال العرب قبل الإسلام. فآواهم الله تعالى بمحمد ﷺ وملكهم شرق الأرض وغربها. ثم لفرط التشابه الموجود بين الدينين قالت قريش عند نظرهم إلى شرائع الإسلام: إنها يهودية متجددة.

وأما النعت الثالث: فلأنا لم نر أمة بعد موسى عليه السلام كذّبت بنبيِّها فنزل بها من جوانح العقوبات مثل ما نزل بمكذبة محمد ﷺ، وخصوصا من كان منهم مصدقا لموسى عليه السلام: مثل بني قريظة، وأهل فدك وخيبر ، وبني النضير .

وهذا النوع من الانتقام يصِّدق الصفة الموجودة في الكتب المتقدمة، وهي ما قيل فيها: إنه يكون بأيديهم أسياف حداد ذوات شفرتين، ينتقم الله بها من الأمم الكافرة.

وأما النعت الرابع: فلأن ((فاران))، وإن كان اسماً للجبل الممتد بين الشام وبادية العرب، فإن الحجاز هي المخصوصة بهذا الاسم.

والدليل عليه ما وجد في التوراة في قصة إسماعيل أنه كان يتعلم الرمي في

برية فاران. وقد علم أن منشأه لم يكن قط إلا أرض الحجاز.

· فقد ظهر أن أسباب النبوة قد طلعت لموسى ﵇ من جبل طور سينين، ثم لعيسى ﵇ من بلد ساعير وما دونها من أرض الشام، ثم لمحمد ﵇ من فاران.

وبمجموع هذه النعوت الأربعة قد اتضح صدق ما وجد في التوراة من البشارة.

وأما لفظ الإنجيل ففيه نعتان يستدل بهما على اتجاه البشارة إلى محمد ﷺ:

والآخر: قوله: ((يعلمكم كل شيء)).

أما الأوَّل منهما الأرواح التي هي منسوبة – لفضل شرفها – إلى الله تعالى صنفان:

أحدهما: المنطقية؛ التي بها يتوصل إلى العقل. ومتي تهذبت هذه الأروح كانت طهارتها سببا للعصمة من الشرور كما قال – تعالى جده – في صفة الأبرار: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[1].

والآخر: القدسية التي خص بها الأنبياء – صلوات الله عليهم – فتوصَّلوا بمكانها إلى إقامة ما أرسلوا به[2] وإليه يتجه قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[3].

(١) سورة المجادلة الآية رقم (٢٢).

(٢) بالأصل كلمة غير واضحة. وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٣) سورة غافر الآية رقم (١٥).

وكان عيسى عليه السلام من الخصوصية بهذه الروح بحيث سمي باسمها على الإطلاق فقيل : روح الله وكلمته . وقد قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[1] .

ثم لم ينل أحد من مزية التأبيد بها غير محمد ﷺ، وبه نطق القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[2] .

وبقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[3]. وبه شهد لنفسه بقوله: ((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطَّلب)) [4].

وإذ تحقق هذا ظهر أن قول المسيح: ((إنه مبعوث بأسمى))، معناه أنه يبعث والذي سُميت به، وهو الروح القدس ، أي ومعه الروح القدس ، فيكون هذا القول نظيراً لقولنا ، بعث بالهدى ودين الحق ، أي ومعه الهدى ودين الحق .

وأما الثاني: فلأن محمداً ﷺ ظهر في وقت كان الكتابيون مضطرين إلى من يقفهم على الحق وتوحيد الله وصفاته بالحجج والبراهين، وفتح الأحكام الجامعة لهم مصالح الدارين، وتعريفهم الآداب الحسنة، والسياسة الفاضلة، ويؤكد ذلك عليهم بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

---

(١) سورة البقرة الآية رقم (٨٧) وآية رقم (٢٥٣).

(٢) سورة الشورى الآية رقم (٥٢).

(٣) سورة النحل الآية رقم (١٠٢).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (الجامع الصغير للسيوطي).

وهذه كلها أشياء لم يقع لها ذكر في تباين الكتب إلا القليل؛ ما خلا علم الأحكام فإنها وقعت في التوراة.

فأما الإنجيل الأربعة التي كتبها تلامذة المسيح؛ أعنى: متى ولوقا ومرقس ويوحنا؛ فهي تشتمل على أخبار المسيح عليه السلام، وما جرت عليه أحواله من لدن مولده إلى آخر أيامه ، مقروناً بذكر ما سمعوه من مواعظه ، وأمثاله ، وثنائه على الله – تعالى جدُّه – وتسابيحه. ثم لا يزيد عليه .

ولقد صنف شمعون الصفا بعده كتابا يعرف بـ«براكسيس»، غير أنه لم يودعه إلا أخبار تلامذة المسيح، وما تصرَّفت عليه أحوالهم.

ثم تلاه في التصنيف بُولس: وسماه «السليخ»، وهو مشتمل على ما يخالف الإناجيل من الأشياء مخالفة ظاهرة.

وكل ما عدا هذين الكتابين من كتب النصارى فليس يزيد على الأناجيل الأربعة شيئًا.

فهذه هي الألفاظ الدالة على مواقع البشارة من التوراة والإنجيل بمحمد عليه السلام ولولا أن استقراء ما في الكتب أجمع من بشاراته؛ أعني كتب أشعياء، وحزقيال وأرميا، ودانيال، والزبور، وغيرها: أمر يطول لأوجبت إيراد الشيء الكبير منها.

وفي هذا القدر كفاية لمن كان الحق يعنيه، ولم يكن الإلف والتعصب آفته.

***

فهذه هي الألفاظ الدالة على مواقع البشارة من التوراة والأنجيل. بمحمد عليه السلام.

ولولا أن استقراء ما في الكتب أجمع من بشاراته. أعنى كتب: أشعياه وحزقيال، وأرميا، ودانيال، والزبور. أمر يطول. لأوجبت إيراد الشيء الكبير منها.

وفي هذا القدر كفاية لمن كان الحق بعينه، ولم يكن الإلف والتعصب آفته.

والله الموفق للخيرة.

فهذا من مجامع ما أمكننى تحصيله في هذا الوقت من المناقب التي فضل بها الدين الحنيفي والملة الإسلامية على الأديان الآخرى وتقديري فيه أنه سيوافق رضا الشيخ الرئيس. بسط الله له في المعالي ذكره. فإن صدق ظني نفذ إلى فضله، وإن نسبنى إلى التقصير، فالخير أردت. وكل أمريء ما أكتسب.

والله أسأل أن ينفع عباده به، وأن يجزل لي المثوبة عليه. أنه القادر على ما يشاء.

الفهرس

الموضوع | رقم الصفحة